الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد الصديق بن يحي –جيجل–

كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

مذكرة بعنوان:

صورة الطفل في الرواية الجزائرية الحديثة

دراسة تحليلية لثلاثية محمد ديب

مذكرة مكملة لمتطلبات نيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

تخصص نقد عربي معاصر

إعداد الطالبتين:
أمينة بوالزيت
مريم بوخروفة

إشراف الأستاذة:
جميلة بورحلة

أعضاء لجنة المناقشة

1 -الأستاذ (ة): محمد بولحية ..... رئيسا
2 -الأستاذ(ة): جميلة بورحلة..... مشرفا و مقرر
3 -الأستاذ(ة): عبد الحق مجيطنة..... عضوا مناقشا

السنة الجامعية:

1436/1435هـ

2015/2014م

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحيم

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء

وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن

تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

صدق الله العظيم

سورة آل عمران الآية 26

شكر وامتنان

الحمدلله رب العالمين حمدا كثيرا مباركا فيه، يكافئ نعمه ويوافي مزيده .....

ومصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم « من لم يشكر الناس لم يشكر الله »

نتقدم بأسمى عبارات الشكر والإمتنان والعرفان للأستاذة الفاضلة " **جميلة بورحلة**"

لقبولها مهمة الإشراف على هذه الأطروحة وإخراجها للوجود، نشكرها على

هامش الحرية التي منحتنا إياها أثناء البحث وعلى تواضعها ورفعة أخلاقها، جزاها الله

عنا وعن طلبة العلم كل الخير.

كما نتقدم بالشكر الجزيل إلى لجنة المناقشة الأساتذة الأفاضل " **محمد بولحية**"، "

"، "**عبدالحق مجيطنة**"، الذين تكرموا بقراءة هذا البحث.

كما نتقدم أيضا بالامتنان للأستاذ الدكتور "**عيسى لحيلح**" ، والأستاذ "**محمد بولحية**" ،

والأستاذ "**عثمان لالوسي**"، وإلى كل من ساهم من قريب أو من بعيد في هذا العمل ،

وكل طاقم قسم اللغة العربية وآدابها .

أمينة بوالزيت- مريم بوخروفة

مقدمة

مقــدمـــة:

الطفولة مهد الأحلام ومبعث الآمال وبؤرة الحياة السعيدة للإنسان، لذلك يفر إليها المبدعون في إبداعاتهم. ولعالم البراءة اتصال وثيق بالعمل الإبداعي الأدبي، ويتحقق موضوع الطفولة في الأدب في شقين: أدب يخاطبها (أدب الأطفال) وهو الأدب الموجه للطفولة والذي يحمل غايات إمتاعية ونفعية، إذ يساهم في تكوين شخصية الطفل وأفكاره وقيمه واتجاهاته في المستقبل. أما الشق الثاني فهو الأدب الذي يتحدث عن الطفولة، إذ يوظفها بوصفها معنى وليس مرحلة معينة من عمر الإنسان.

إن موضوع الطفولة في النتاج الأدبي الجزائري لم يلق الاهتمام الكافي من قِبل النقاد والدارسين الجزائريين، ولم نعثر-فيما تمكنا من الاطلاع عليه- على دراسة جادة تتعلق بصورة الطفل في الأدب الجزائري أو في الرواية الجزائرية إلا في القليل النادر، وإن وجدت بعض هذه الدراسات فإنها محدودة مقارنة بتلك الدراسات العربية التي تناولت صورة الطفل في الأدب مثل: "صورة الطفل في الرواية المصرية" لـ: "منير فوزي"، و"صورة الطفولة في الشعر العربي المعاصر" لـ: "سليمة عكروش"، وما ظهر من دراسات في الأدب الجزائري فإنه ركز على جنس الشعر والقصة دون الرواية، منها مذكرة ماجستير "صورة الطفل في القصة القصيرة الجزائرية المعاصرة" لـ: "زهرة غرناوط" لعام 2012-2013م، ومن هنا كان اختيارنا لموضوع "صورة الطفل في الرواية الجزائرية الحديثة" محاولةً للكشف عن كيفية تجسيد الروائيين الجزائريين للطفولة في نتاجهم الروائي، زد على ذلك حبنا لهذه المرحلة وشدة تعلقنا بها قد كان دافعا قويا وراء اختيارنا لهذا البحث، والذي يحاول الإجابة عن جملة من التساؤلات منها:

- هل اهتم الأدب العربي بموضوع الطفل؟.
- هل اهتم الروائيون الجزائريون بموضوع الطفل؟ ومتى برز هذا الاهتمام بشكل واضح؟.
- ما هي الألون التي برز فيها الطفل الجزائري في الرواية الجزائرية الحديثة؟.

واختيارنا للمدونة الروائية"ثلاثية محمد ديب" لم يكن عشوائيا ذلك لأنها قد صورت عالم الطفولة في المجتمع الجزائري إبان الاحتلال الفرنسي.

وطبيعة بحثنا اقتضت الاستناد إلى أكثر من منهج؛ لأن الاعتماد على منهج واحد لا يكفي للإحاطة بكل القضايا التي تناولناها، فقد اتبعنا المنهج الوصفي في المدخل في حديثنا عن أدب الأطفال، ثم اعتمدنا على المنهجين الاجتماعي والنفسي في حديثنا عن صورة الطفل في علمي الاجتماع والنفس. وفي الحديث عن صورة

الطفل في المخيال الأدبي لجأنا إلى المنهجين التاريخي والموضوعاتي حيث تتبعنا صورة الطفل في المخيال الأدبي منذ الجاهلية حتى الأدب المعاصر، كما قمنا بالمقاربة الموضوعاتية في كشف صور الطفل المهيمنة على الأدب العربي والجزائري. وفي الجانب التطبيقي احتجنا إلى الاستعانة بعلم النفس وعلم الاجتماع عند تحليل بعض الظواهر النفسية والسلوكات الاجتماعية المتعلقة بالطفل الجزائري أثناء الاستعمار.

وما تعدد هذه المناهج بعالة على البحث لأنها تنضوي كلها تحت ما أطلقنا عليه اختصارا في العنوان "دراسة تحليلية".

وقد جاء البحث في مدخل وفصلين وخاتمة، تعرضنا في المدخل إلى أدب الأطفال: تعريفه، أنواعه، أهدافه وأهميته. ثم خصصنا الفصل الأول لدراسة ورصد صورة الطفل في الدراسات العلمية والمخيال الأدبي، تحدثنا في المبحث الأول عن الطفل في علم النفس وفيه عالجنا قضية التكوين النفسي للطفل عبر مراحل الطفولة التي جاء بها علم النفس من مرحلة ما قبل الولادة مرورا بمرحلة الرضاعة إلى الطفولة المبكرة فالطفولة المتأخرة وصولا إلى مرحلة المراهقة.

أما المبحث الثاني فإنه يحلل الطفل اجتماعيا عبر المراحل التي قسمها علماء الاجتماع، وهي نفس مراحل علم النفس عدا مرحلة ما قبل الولادة، وبالنسبة للمبحث الثالث فإنه يرصد صورة الطفل في المخيال الأدبي حيث تحدثنا فيه عن حضور الطفولة في الشعر الجاهلي والعباسي والمعاصر، وكذا في الفن القصصي والروائي العربي والجزائري والعالمي وفي أدب الأطفال.

وفي الفصل الثاني تقصينا صورة الطفل الجزائري في"ثلاثية محمد ديب"؛ فالمبحث الأول تحدثنا فيه عن حياة المؤلف وأهم أعماله الإبداعية، أما المبحث الثاني فقد طرق صورة الطفل الجزائري في المدينة (أطفال المدينة) وما يعانونه من ظلم وفقر وجوع إبان الاحتلال الفرنسي كان ذلك في رواية "الدار الكبيرة". والمبحث الثالث رصد صورة أطفال الريف في رواية "الحريق"، أما المبحث الرابع فحديثه عن صورة أطفال المعامل والمصانع أي ظاهرة "عمالة الأطفال" من خلال رواية "النول"، وقد كان رصد هذه الصور المختلفة عن الطفل الجزائري عن طريق بطل الثلاثية الطفل "عمر"، وآخر البحث كان خاتمة جامعة لما تطرقنا إليه في الجانبين النظري والتطبيقي.

وزادُ هذا البحث مجموعة من المصادر والمراجع تمثلت في القصص والدواوين الشعرية، وكذا مجموعة من الكتب منها: "أدب الأطفال" لـ: "هادي نعمان الهيتي"، و"صورة الطفل في رواية المصرية" لـ: "منير فوزي"، وكتاب "الرواية

الجزائرية المكتوبة بالفرنسية–دراسة سوسيونقدية" لـ: "أم الخير جبور"، إضافة إلى ثلاثية الجزائر لـ:"محمد ديب" والتي استفدنا منها كثيرا وغيرها من المصادر والمراجع.

ومن الصعوبات التي واجهتنا في إعداد البحث قلة المراجع المتخصصة في الأدب الجزائري والتي طرقت موضوع الطفولة، وكذلك تكرار الآراء كثيرا في الكتب الخاصة بأدب الأطفال، كما نجد أحيانا اقتباسات للفقرات دون إشارة المؤلف إلى ذلك، مما صعب علينا تمييز المصدر من المرجع.

وأخيرا لا ندعي أننا بلغنا كل ما سعينا إليه ولا نقول إننا أتينا بالجديد في هذا البحث، فهو لا يعدو أن يكون محاولة تعلّم وقراءة لما جاء به من قبلنا من العلماء والدارسين، وحسبنا في كل هذا أجر الاجتهاد، والكمال لله في كل أمر.

نسألك ربي التوفيق والسداد.

مدخل

مدخل: لمحات في أدب الأطفال

إذا كان من حق الأطفال على المجتمع أن يوفر لهم أسباب الرعاية الجسمية والصحية بمختلف أشكالها وأن يقيم المؤسسات اللازمة لذلك، فإن واجب الكتاب والمربين تحقيق الانتماء الفكري للأطفال، والتوجيه الثقافي لهم وإشباع الحاجات النفسية والروحية لديهم، وذلك بإعداد ما يلزم من قصص وكتابات ومؤلفات ينعمون بها وهذا ما يعرف بأدب الأطفال الذي هو أحد الروافد الثقافية لشخصية الطفل لما له من تأثير واضح في تربي ته وتنشئته الاجتماعية وفي وضع اللبنات الأساسية لاكتمال نموه العقلي والنفسي...

أولا: تعريف أدب الأطفال

هو ذلك الإنتاج الفني والأدبي الموجه إلى فئة عمرية محددة من المجتمع وهي فئة الأطفال ، ويعنى بتقديم هذا الخطاب مجموعة من المبدعين لديهم القدرة على النزول إلى مستوى تفكير الطفل والولوج إلى هذا العالم الملائكي.

ويحمل أدب الأطفال معنيين معنى عام ومعنى خاص ؛ أما المعنى العام فهو يعني:«الإنتاج العقلي المدون في كتب موجهة للأطفال في شتى فروع المعرفة، كالمقررات الدراسية والقراءة الحرة، أما المعنى الخاص (...) فهو الكلام الجيد الجميل الذي يحدث في نفوس الأطفال متعة فنية، كما يساهم في إثراء فكرهم سواء أكان أدبا شفويا بالكلام أم تحريريا بالكتابة وقد تحققت فيه مقوماته الخاصة من رعاية لقاموس الطفل وهي تتوافق مع الحصيلة الأسلوبية للسن التي يكتب لها»[1].

وبالتالي فأدب الأطفال هو جزء من الأدب بشكل عام ينطبق عليه ما ينطبق على الأدب من تعريفات إلاأنه يتخصص في مخاطبة فئة معنية من المجتمع وهي فئة الأطفال ، والفرق بينه وبين أدب الكبار أنّه يقوم على خصوصية المتلقي أساسا، تبعا لاختلاف عقولهم وإدراكاتهم فالكبار يختلفون عن الصغار.

ويعرفه "إسماعيل عبد الفتاح" بأنه «ذلك الجنس الأدبي المتجدد الذي نشأ ليخاطب عقلية الصغار، ولإدراك شريحة عمرية لها حجمها العددي الهائل في صفوف أي مجتمع (...) فهو أدب مرحلة متدرجة من حياة الكائن البشري لها خصوصيتها وعقلانيتها وإدراكها وأساليب تثقيفها، فمصطلح أدب الأطفال يشير إلى ذلك الأدب الموروث وأدب الحاضر وأدب المستقبل لأنه موجه إلى مرحلة عمرية طويلة من عمر الإنسان» [2].والمراد من قول "إسماعيل عبد الفتاح" هو التنبيه إلى الأهمية الكبيرة التي يكتسبها هذا النوع الأدبي النابعة أساسا من

[1]. سعد أبو رضا، النص الأدبي للأطفال-أهدافه ومصادره وسماته، د.ط، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، د.ت، ص 23.

[2].إسماعيل عبد الفتاح، أدب الأطفال في العالم المعاصر، ط 01، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، مصر، رمضان 1420هـ، يناير 2000م، ص ص 22، 23.

خصوصية مرحلة الطفولة ، هذه الأخيرة تعد من أهم مراحل حياة البشر فعليها ينبني المستقبل ويتحقق الحاضر فالتوجيه السليم لهذه المرحلة العمرية يولد مجتمعا سليما والعكس.

ويحدد الباحث "أحمد زلط" مفهوما لأدب الأطفال إذ يقول: «أدب الطفولة نوع أدبي متجدد في أدب أي لغة وفي أدب لغتنا هو ذلك النوع الأدبي المستحدث من جنس أدب الكبار (شعره ونثره وإرثه الشفاهي والكتابي) فهو نوع أخص من جنس يتوجه لمرحلة الطفولة، بحيث يراعي المبدع المستويات اللغوية والإدراكية للطفل، تأليفا طازجا أو إعادة بالمعالجة من إرث سائر الأنواع الأدبية المقدمة له ومن ثم يرقى بلغتهم وخيالاتهم ومعارفهم واندماجهم مع الحياة، بهدف التعلق بالأدب وفنونه لتحقيق الوظائف التربوية والأخلاقية والفنية والجمالية»[1].

فأدب الأطفال لا يختلف عن أدب الكبار في شيء فمادته هي اللغة وطبيعته التخيل، وهو يندرج ضمن مفهوم الأدب عموما من حيث المادة والطبيعة والأنساق، غير أنه يكون في مستوى القدرات الفكرية للطفل ووفق هذه النظرة إذن «فإن أدب الأطفال في مجموعه هو الآثار الفنية التي تصور أفكارا وإحساسات وأخيلة تتفق ومدارك الأطفال وتتخذ أشكال القصة، الشعر، والمسرحية، والمقالة والأغنية»[2].

وزيادة على ما سبق يضيف "محمد أديب الجاجي" إلى تعريف أدب الأطفال بعدا أو تصورا إسلاميا في قوله: «هو الأداة التعبيرية التي تراعي خصائص الطفولة وتلبي احتياجاتها وتؤهلها لأداء دور فاعل في صنع المستقبل ملتزمة بمبادئ التصور الإسلامي وفق أشكال من التعبير الأدبي تناسب العصر وتحقق المتعة الفنية (...) ومن أهم معايير هذا الأدب أنه يصدر في كل ما يتعلق بالطفولة (...) وكل ما يتعلق بالكلمة التي هي النتاج المقدم لها، وكل ما يتعلق بالأهداف التي يراد الوصول بالطفولة إليها، يصدر الأدب في كل ما يتعلق بذلك وغيره عن الالتزام بمبادئ التصور الإسلامي التي تحدد منطلق وفلسفة هذا الأدب وتصوره عن -الله والكون والإنسان والحياة- ومن خلال مصادره الشرعية -النقلية والعقلية-»[3].

وخلاصة القول إن أدب الأطفال هو الإبداع الفني الصادق الموجه لعالم الطفولة ضمن الأشكال الأدبية المعروفة في الأدب عموما، غير أن واجب المبدع الذي يخاطب هذا العالم الملائكي هو مراعاة المستوى الإدراكي والانفعالي والعاطفي لهذه الشريحة العريضة في كل مجتمع وعليه أيضا أن يتماشى مع مراحل نمو هذه الشريحة لأنها تمر بمراحل عدة في إطار مرحلة الطفولة بصورة عامة، ولا بد أيضا أن يضع الكاتب في حس بانه المبادئ والقيم

---

[1]. أحمد زلط، أدب الأطفال بين كمال الكيلاني ومحمد الهرواي، د.ط، دار المعارف، مصر، 1994م، ص 30.

[2]. هادي نعمان الهيتي، أدب الأطفال فلسفته فنونه ووسائطه، د .ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، مصر، بالاشتراك مع دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، 1977م، ص 71.

[3]. محمد أديب الجاجي، أدب الطفل في المنظور الإسلامي دراسة وتقويم، د.ط، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، د.ت، ص ص 14، 15.

الإسلامية خلال كتاباته وأن يساهم في التنشئة الدينية للطفل، وذلك بإرسال جملة القيم الروحية والأخلاقية عبر إبداعاته.

ثانيا: أشكال أدب الأطفال

تتعدد الوسائط التي تتشكل من خلالها الألوان والمواد الأدبية للطفل فهناك المسرح والموسيقى والصحافة والكتب والوسائل مسموعة كانت أو مرئية أو مطبوعة، فلكل منها دور في توصيل الأدب للطفل، وبتعدد الوسائط تعددت فنون التعبير فهناك القصة والمسرحية والأغاني والأشعار وهي كما يلي:

أ-القصة:

«هي شكل فني من أشكال أدب الأطفال فيه جمال ومتعة وخيال والقصة من أحب ألوان الأدب للأطفال ومن أقربها إلى نفوسهم، وهي عمل فني له قواعد وأصول ومقومات وعناصر فنية هي:

أ-الحبكة القصصية.

ب-البيئة الزمنية والمكانية.

ج-الموضوع.

د-التشخيص.

هـ-الشكل والحجم»[1].

فهي لون أدبي شيق لما تحدثه من جمال ومتعة في نفسية الطفل فيتأثر بها وبمشاهدها وقد عرفها "أحمد زلط" في قوله:«القصة لون قرائي فني متعدد المضامين، يكتبها الكبار للأطفال وتشتمل على عناصر القصة عند الكبار مثل الحدث (الأحداث)، الشخصية (الشخصيات)، بيئة القصة (الزمانية والمكانية)، السرد القصصي والأسلوبي، العقدة الفنية، الانفراج (الحل)، والهدف (الأهداف) ويراعي كاتب القصة تبسيط تلك العناصر لتناسب المراحل والخصائص العمرية النمائية عند الأطفال»[2].

والقصة من الفنون القديمة التي وجدت من ذ أن وجد أدب موجه للطفل ، ونظرا لأهميتها فهي تحتل المرتبة الأولى في الإنتاج الفكري الموجه للأطفال ، فمهمة القصة «أن تقدم للأطفال أشياء عن الماضي البعيد (...) وتمدهم بخبرات وتجارب من الحاضر وتعدهم لخبرات المستقبل وتعمل على مساعدتهم في تنمية المعرفة والفهم

[1]. عبد الفتاح أبو معال، أدب الأطفال دراسة وتطبيق، ط 02، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2001م، ص 38.

[2]. أحمد زلط، أدب الطفل العربي -دراسة معاصرة في التأصيل والتحليل، ط 01، دار هبة النيل للنشر والتوزيع، مصر، 1418 هـ، 1998 م، ص 164.

وتكوين القيم والمعتقدات والآراء الفردية لكل طفل منهم، (وتمكن أيضا القصة الطفل معرفته بنفسه)* وتساعده على إنماء علاقته وفهمه لغيره من الناس الذين يعيشون في بيئته»[1].

وعلى هذا الأساس فإن القصة من أهم الأنواع الأدبية انتشارا وشيوعا بين الأطفال، فهي تستثير اهتمامهم وتجذبهم نحوها لما تحتويه من أفكار وأخ يلة «فعن طريقها يعرف الطفل الخير والشر، فينجذب إلى الخير وينأى عن الشر، والقصة تزود الطفل بالمعلومات، وتعرفه الصحيح من الخطأ، وتنمي حصيلته اللغوية وتزيد من قدرته في السيطرة على اللغة، وتنمي معرفته بالماضي والحاضر وتهيئ له المستقبل، وتنمي لديه مهارات التذوق الأدبي»[2].

وبهذا تكون القصة أداة للتنفيس عما يختلج الأطفال من رغبات ومكبوتات، فمن خلالها تنفجر مواهبه الكامنة وينطلق باتجاه عالم الخيال والإبداع والاكتشاف.

ب–شعر وأغاني الأطفال:

تعد الأغاني والأشعار والأناشيد ذات أهمية كبيرة عند الأطفال وذلك لما فيها من تنغيم وإيقاع يؤثر فيهم ويستميلهم «وشعر الأطفال لون من ألوان الأدب (...) يجد الأطفال أنفسهم من خلاله يحلقون في الخيال، متجاوزين الزمان والمكان عبر الماضي وعبر المستقبل، ليست هناك قيود على موضوعاته وأفكاره ومعانيه وخيالاته، بيد أن طريقة المعالجة والقدرة الفنية تقتضي كلمات مألوفة وخبرات محدودة لا تنطوي على تقرير معلومات وحقائق لأن شعر الأطفال يتمثل في إضفاء لمسات فنية على جوانب الحياة (...) لتجد فيها قلوب الأطفال الغضة متعة غامرة إذا ما رسمت في إطار فني جميل»[3].

فالشعر الجيد هو الذي تمتزج فيه خبرة الشاعر مع تجربة الطفل وهو الذي يربط بين عواطف الأطفال وأخيلتهم وأفكارهم حتى يحقق استجابات عاطفية وانطباعات فنية.

ويؤكد معظم الدارسين في حقل أدب الأطفال أن الشعر أسبق الفنون إلى وجدان الطفل على أساس «أن الشعر موسيقى يحمل كلمات (...) بل قد اعتبر* الشعر والموسيقى في بعض الحضارات القديمة من أهم ما يجب أن يتعلمه الأطفال، لأنهما أداتان لتصفية الروح وتجميل العقل، ومرحلة الطفولة هي المرحلة التي يكتسب الطفل

* وردت العبارة خاطئة على مستوى التعبير والصحيح (وتمكنه أيضا من معرفة نفسه).

[1]. مفتاح محمد دياب، مقدمة في ثقافة وأدب الأطفال، ط 01، الدار الدولية للنشر والتوزيع، مصر، كندا، 1995م، ص ص 142، 143.

[2].المرجع نفسه، ص ن.

[3].انشراح إبراهيم المشرفي، أدب الأطفال–مدخل للتربية الإبداعية، ط 01، مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع، د.ب، 2005م، ص 89.

*وردت الكلمة في المتن على النحو التالي (اعتبر) والأصح (عد).

فيها حصيلة موسيقية تشكل اتجاهه نحو الاهتمام بالموسيقى (...) وذلك بقدر ما تقدمه الأسرة والمدرسة من خبرات موسيقية مناسبة»[1].

فالشعر إذن فضاء إيقاعي يستهوي فئة الأطفال ويستميلهم وذلك لما يحمله من شحنات عاطفية وموسيقية، ويؤكد "عبد الفتاح أبو معال" أن شعر الأطفال الناجح «يجب أن تكون لغته شاعرية، وأن يكون موضوعه ذا هدف ومغزى للأطفال ولا شك في أن التجارب الشعورية والعاطفية لدى الصغار تشبه تجارب الكبار ولا تختلف إلا في مثيراتها وحوافزها، والأطفال يحبون إدراك هذه التجارب والشعر يجب أن يحقق لهم ذلك» [2]. كما نجد الكاتب يخضع هذا الشعر (شعر الأطفال) لمجموعة من الشروط والضوابط فيقول: «ولكن لا مكان في شعر الأطفال للمثيرات الحادة مثل الرثاء أو شعر المرارة والهجاء والكراهية والقسوة الشديدة أم ا المجازات والكنايات والإشارات الضمنية في شعر الأطفال فيجب أن تكون محدودة وقليلة ويجب أن تكون متعلقة بالموضوعات التي تدخل في نطاق تجارب الصغار»[3].

فمن خصائص هذا الشعر أن يتسم بالبساطة والسهولة حتى يتناسب والقاموس اللغوي للطفل وأن تكون كلماته مستوحاة مما يحيط بالطفل من أشياء خصوصا ما يتعلق بحقل الطبيعة، كما ينبغي «أن يكون اللفظ رقيقا في المواقف الرقيقة، قويا في المواقف القوية مثيرا للعواطف في المواقف العاطفية» [4]، وهذا ما أدى إلى أن يقر أغلب الدارسين بصعوبته مثل ما هو الحال عند "محمد مرتاض" حيث يقول: «لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن نظم قصائد للأطفال أصعب بكثير من نظم قصائد للكبار إذ على شاعر الأطفال أن يضع في حسبانه كثيرا من التقنيات (...) ومن هذه الحقائق والتقنيات مراعاة المستوى العمري والفكري واللغوي والنفسي وغير ذلك، إذ أن ما يكتب لطفل في الرابعة من عمره يختلف عما يكتب لآخر في الحادية عشر مثلا، فانشغالات الطفل وأهدافه متباينة وطموحاته متفاوتة»[5].

ويكتسي هذا النوع الأدبي المتمثل في شعر الأطفال أهمية كبيرة في المدرسة أو في الأسرة أو بالنسبة للطفل بالدرجة الأولى.

[1].محمد عبد الرزاق إبراهيم وآخرون، ثقافة الطفل، ط 03، الفكر للنشر والتوزيع، عمان، 2009م، ص 233.

[2].عبد الفتاح أبو معال ،أدب الطفل دراسة وتطبيق، ص 93.

[3].المرجع نفسه، ص ن.

[4]. انشراح إبراهيم المشرفي، أدب الأطفال-مدخل للتربية الإبداعية، ص 92.

[5]. محمد مرتاض، من قضايا أدب الأطفال-دراسة تاريخية فنية، د.ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية بن عكنون، الجزائر، 1994م، ص 62.

ج–المسرح:

«مسرح الطفل أو مسرح الطفولة (...)أحد أهم وسائط أدب الطفولة في العصر الحديث، ومسرح الطفل في ضوء ذلك وسيط مركب العناصر يتوجه لمرحلة عمرية طويلة ومتدرجة من عمر الإنسان، ويتمايز مسرح الطفل عن الوسائط الثقافية والإعلامية الموازية له في القدرة على مخاطبة عقل الطفل ووجدانه في أشكال فنية متنوعة لا تتوفر عناصرها في الوسائل الأخرى كالكتاب والمجلة والإذاعة والتلفزة»[1].

فهو أحد الوسائط التعليمية والتثقيفية يستمد فعاليته التأثيرية من الاستعانة بالنصوص الأدبية والدراما المبسطة إضافة إلى توظيف الفنون مجتمعة من صورة وأزياء ودمى.

ويعده "إسماعيل الملحم" وسيلة تعليمية وتربوية تدخل في نطاق التربية الجمالية والخلقية إضافة إلى أنه وسيلة للتنمية العقلية، يهتم بالتعليم الفني للأطفال منذ مراحلهم الأولى، لهذا لم يبق الاهتمام حسب رأيه مقتصرا على العاملين فيه فقط، بل تعدى ذلك إلى المختصين في علم النفس وعلم الاجتماع حيث يقول: «وهكذا فإن مسرح الطفل قد اتسعت دوائر المهتمين به لتشمل فئات المربين والمعلمين والكتاب، إضافة إلى الفنيين الذين يعملون في الديكور والإضاءة وإعداد الملابس والتصميم وغير ذلك» [2]. هذا إضافة إلى أنهأحد أهم «الأدوات والوسائل الفنية والدرامية الممتعة والمثيرة في مجال ترسيخ المضامين الإنسانية في وجدان الأطفال وفكرهم منذ مرحلة مبكرة في حياتهم»[3].

ومسرح الطفل أنواع تتمثل في : المسرح التقليدي، المسرح العرائسي والمسرح التربوي، وكلها تساهم في التسلية والترويح على نفس الطفل حيث تقترب من عالمهم الصغير بهدف توسيع مداركهم وأفكارهم وتعويدهم على الجرأة الأدبية وعلى المشاركة والعمل الجماعي.

ثالثا: أهمية وأهداف أدب الأطفال

ما من عمل يقوم به الإنسان إلا وله غاية رسمت له، ذلك لأن الإنسان صاحب عقل وتفكير وإدراك فكل عمل يقوم به يكون صادرا عن وعي منه وقد تكون هذه الغاية شريفة وقد لا تكون كذلك، وفي كل الأحوال ثمة غاية مع كل عمل وثمة هدف في كل نشاط إنساني، كذلك الحال بالنسبة لأدب الأطفال فهو موجه إلى فئة محددة ولغايات واضحة، ذلك لأن الطفل بحاجة إلى أن يعرف ذاته وذ وات الآخرين ويعرف البيئة التي تحيط به لي جيد التعامل معها.

[1].أحمد زلط، أدب الطفل العربي–دراسة معاصرة في التأصيل والتحليل، ص 196.

[2]. إسماعيل الملحم، كيف تعتني بالطفل وآدابه، ط 01، دار علاء الدين، دمشق، 1994م، ص 86.

[3].محمد مبارك الصوري، مسرح الطفل وأثره في تكوين القيم والاتجاهات، د.ط، مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت، 1998م، ص 60.

وقد حدد كثير من المهتمين بهذا الأدب مجموعة من الأهداف التي يسعى إليها أدب الأطفال، وعلى العموم فإن الهدف العام لهذا الأدب «هو الاهتمام بأبعاد شخصية الطفل جميعها الجسمية والعقلية والانف عالية والإدراكية والاجتماعية والجمالية بشكل متوازن متكامل»[1].

فأدب الأطفال ليس أدبا ترفيهيا فحسب بل ينبغي أن يكون له دور تربوي ، وهو ليس مجرد عرض للأخبار ولكن نقل للمعرفة وترسيخها في أذهان الصغار ، تقول "مريم سليم" بهذا الصدد «لا تكون غاية أدب الأطفال هي إذكاء الخيال فقط ولكنها تتعداه إلى ت زويدهم بالمعلومات العلمية والتقاليد الاجتماعية والاتجاهات الوطنية وإلى توسيع محصولهم اللغوي ومدهم بعادة التفكير المنظم ووصلهم بركب الثقافة والحضارة حولهم»[2].

ويمكن تلخيص أهمية أدب الأطفال في جملة من النقاط وهي كما يلي:

-أنه ينمي الذوق الفني والجمالي عند الأطفال وذلك من خلال الأغاني والأناشيد.

-يزيد من الخيال العلمي عند الأطفال وذلك عبر القصص والحكايات المختلفة.

-يعمل على تنمية الجانب العاطفي والإدراكي العقلي للطفل ويربيه اجتماعيا.

-يرسم معالم الشخصية للطفل من خلال غرس مجموعة من القيم التي تحدد طبيعة تلك الشخصية.

-يساهم في إكساب الطفل الثروة اللغوية، وإثراء ثقافته وإشباع رغبته في المعرفة واكتشاف البيئة التي يعيش فيها.

-يساعد في غرس مجموعة من القيم لدى الأطفال منها القيم الدينية والقومية الوطنية والاجتماعية والإنسانية.

[1]. عبد المعطي نمر موسى ومحمد عبد الرحيم الفيصل، أدب الأطفال، د.ط، دار الكندي للنشر والتوزيع، الأردن، 2000م، ص 65.

[2]. مريم سليم، أدب الطفل وثقافته، ط 01، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 2001م، ص 15.

الفصل الأول: الطفل في الدراسات العلمية والمخيال الأدبي

المبحث الأول:الطفل وعلم النفس

المبحث الثاني:الطفل وعلم الاجتماع

المبحث الثالث:الطفل في المخيال الأدبي

الفصل الأول: الطفل في الدراسات العلمية والمخيال الأدبي

ليس من اليسير وضع تعريف جامع مانع للطفل والطفولة لأن حياة الإنسان وحدة متصلة ومتداخلة ، ومن الصعب الاتفاق على سن محددة كنهاية لمرحلة الطفولة، وتعد هذه المرحلة من أهم المراحل التي يمر بها الإنسان، إذ يكون الطفل ضعيفا في كل النواحي الجسمية، والعقلية، والنفسية، وتكون لديه قابلية كبيرة للتأثر بالعوامل الخارجية المحيطة به.

والطفل لغة«من الفعل الثلاثي طَفَلَ والطَفل: هو النبات الرخص والرخص الناعم والجمع طفال وطفول.

والطفل والطفلة:الصغيران والصبي يدعى طفلا حين يسقط من بطن أمه إلى أن يحتلم (...) وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾* وقال تعالى: ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾**»[1].

وفي الفقه الإسلامي يُعَرف الطفل بأنّه :«كل شخص لم يبلغ الحلم وأطلقت عليه تسميات أخرى كالصبي أو الصغير»[2]. وتبدأ مرحلة الطفولة من لحظة تكون الجنين في بطن أمه لقوله تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلا﴾ ***. ونهايتها تكون ببلوغه ورشده أي بداية سن التكليف الشرعي، ويكون هذا السن بظهور علامات البلوغ وهي عند الذكور الاحتلام والإحبال، أما عند الأنثى فهي الحيض والاحتلام والحبل، وما لم تظهر هذه العلامات فقد اختلف الفقهاء في تحديد السن الفاصلة بين مرحلة الطفولة ومرحلة البلوغ؛ فعند الشافعية وبعض الحنفية حددت بسن الخامسة عشر، أما المالكية وأبو حنيفة (في قول له) فقد مددوا مرحلة الطفولة إلى غاية سن الثامنة عشر.

وفي القوانين الوضعية والقانون الدولي عرفت اتفاقية حقوق الطفل المؤرخة في : 20 . 11. 1989م الطفل أنه:«كل إنسان لم يتجاوز الثامنة عشر سنة ما لم يبلغ سن الرشد قبل ذلك بموجب القانون المتطابق عليه»[3].

وعلى العموم يتضح أن الطفولة كائنة في المرحلة الأولى من عمر الإنسان، وتبدأ من ما قبل الولادة حتى سن البلوغ، ولها حاجاتها وسماتها وخصائصها التي تميزها عن المراحل العمرية الأخرى. وقد اهتم علماء النفس

*سورة غافر، الآية 67.

**سورة النور، الآية 31.

[1]. ابن منظور (جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم)، لسان العرب، ط 01، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005م، مج 06، [مادة طفل]، ص ص 487، 488.

[2]. منتصر سعد حمودة وبلال أمين زين الدين، انحراف الأحداث –دراسة فقهية في ضوء علم الإجرام والعقاب والشريعة الإسلامية، ط 01، دار الفكر الجامعي، مصر، 2007م، ص 24.

***سورة الحج، الآية 05.

[3]. الحملة العالمية لحقوق الإنسان، اتفاقية حقوق الطفل، الأمم المتحدة، نيويورك، المادة 01، ص 17.

والاجتماع وحتى الأدباء بهذه الفترة، ووضعوها محل الدراسة لتبيان خصائصها وطرق التعامل معها من أجل تنشئة سليمة.

المبحث الأول: الطفل وعلم النفس

الطفولة في نظر علماء النفس هي تلك الفترة الممتدة من بد اية تكوين الجنين في رحم أمه إلى غاية مرحلة البلوغ الجنسي، وقد تتبع هؤلاء مراحل النمو الجسمي والانفعالي للطفل وأتو ا على ذكر خصائص كل مرحلة على حدة، بداية من مرحلة ما قبل الميلاد حتى سن النضج الجنسي.

1. مرحلة ما قبل الميلاد:

لهذه المرحلة أهمية بالغة كونها أحد العوامل التي تؤثر في نمو الفرد مستقبلا حيث يتعرض الجنين في مراحل تكوينه المختلفة لظروف، قد تترك آثارها على النمو بشكل دائم فيما بعد، فلقد أصبح معروفا الآن أن الجنين لا يكتسب تكوينه العضوي من العوامل الوراثية وحدها بل هناك عوامل البيئة التي يعيش فيها، ويقصد بذلك البيئة الرحمية للأم، وهي البيئة التي تتأثر بدورها بالبيئة الخارجية المحيطة بالأم، وما يمر بالأم نفسها من خبرات وأحداث[1].

فظروف الأم وما تتعرض له من مؤثرات مادية ونفسية واجتماعية تؤثر تأثيرا كبيرا على الجنين، وبالتالي فهذه الفترة من الفترات الحرجة في حياة الأم وجنينها وخصوصا«الفترة ما بين الأسبوع الثالث والأسبوع الثامن للحمل ذلك أن هذه الفترة هي التي تحدث فيها معظم التغيرات النمائية اللازمة لتكوين الكائن الحي الإنساني، ويحدث هذا بمعدل من السرعة أعلى من أي فترة أخرى في هذه المرحلة»[2].

كما أن أهم ما يؤثر في تكوين الجنين في مراحله المختلفة صحة الأم الجسمية والنفسية، ولهذا وجب عليها الابتعاد عن الانفعال لأن ذلك ينعكس على مولودها مستقبلا وعلى حالته النفسية.

2. مرحلة الرضاعة (من الميلاد حتى نهاية السنة الثانية):

وتسمى أيضا "مرحلة المهد"، حيث تبدأ من خروج الطفل إلى هذا العالم حتى نهاية السنة الثانية، ولهذه المرحلة أهميتها البالغة في تكوين المعالم الأولى لبناء شخصية الطفل، وتحديد ميولاته واتجاهاته، حيث تزيد حاجة الطفل للفضول والاستطلاع «فكثيرا ما نرى الطفل يتطلع إلى الأشياء بعينيه ويتبعها، والطفل يحاول بهذا السلوك أن يتعرف على كل شيء جديد في بيئته، ويحاول أن يختبره، كما أن لعب الطفل المبكر وتناوله لكل ما يقع تحت

[1]. محمد عماد الدين إسماعيل، الطفل من الحمل إلى الرشد، ط 01، دار الفكر ناشرون وموزعون، عمان، الأردن، 2010م، ص 124.
[2]. المرجع نفسه، ص 143.

بصره أو يديه، وتنقيبه فيما حوله ليس في الواقع إلا إشباعا لحاجته إلى حب الاستطلاع أو الفضول، ورغبته في اكتشاف المعاني والدلالات»[1].

فالاستطلاع هنا وسيلة لا غناء للطفل عنها، فهي تمكنه من معرفة ما يدور من حوله، واكتشاف كُنْهِ الأشياء وأسرارها، فهي بداية لتشكل المفاهيم وإذكاء الخيال.

وفي هذه المرحلة لا يمكن الفصل بين النمو الحركي، والنمو المعرفي للطفل لأنه «يفكر بجسمه بمعنى أن ما يصدر عنه من حركات وما قد يترتب على هذه الحركات من نتائج ينعكس أثره بعد ذلك على كل من الحركة (التالية) والمعرفة معا، فتتمايز الحركات (أي تصبح أكثر دقة وأكثر ثباتا)، وتنمو في الوقت نفسه الحصيلة المعرفية للطفل عن العالم المحيط به»[2].

كذلك فإنناالانستطيع أن نفرق ونفصل بين الجانب الانفعالي في النمو وبين الجانب الاجتماعي، وخصوصا الطفل في علاقته بالكبير أو بمن يحضنه«فعندما يحقق الحاضن للرضيع الراحة والهدوء يبتسم الرضيع، لا يتوقف الأمر عند هذا الحد بل يؤدي هذا إلى زيادة حماس الحاضن، واهتمامه وعندما يكون الرضيع منتبها إلى الحاضن يحاول الحاضن أن يداعب الطفل، ولكن عندما يحول الطفل انتباهه عن الحاضن سرعان ما يتعلم الحاضن أن يقلل من مثل هذا السلوك، وهكذا يتبادل الاثنان تعديل سلوك كل منهما الآخر؛ بحيث تمر العلاقة بين الحاضن والرضيع في سلسلة إعادة التوافق المستمرة في كل مرة يظهر فيها الطفل تقدما في مستوى النشاط الذي يصدر عنه»[3].

من خلال ما سبق يتضح أن كلا من الطفل و الكبير يشكلان معادلة إيجابية، فكما أن الطفل يتوافق مع أساليب الكبير، كذلك فإن الكبير يتوافق مع استجابات الصغير خصوصا في حالات انفعالية مثل البكاء إذ إن لبكاء الرضيع أثرا له دلالة في لفت الانتباه «ولذلك كله وظيفة بقائية ذلك أن تأثير الرضيع على الحاضن على هذا النحو –بلا شك– له دور كبير في المحافظة على بقائه»[4].

---

[1]. وفيق صفوت مختار، سيكولوجية الطفولة–دراسة تربوية نفسية في الفترة من عامين إلى 12 عاما، د.ط، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2005م، ص 225.

[2]. محمد عماد الدين إسماعيل، الطفل من الحمل إلى الرشد، ص 198.

[3]. المرجع نفسه، ص 237.

[4]. المرجع نفسه ،ص ن.

وتتميز هذه المرحلة بمجموعة من الأساليب الانفعالية «فتظهر انفعالات الانشراح والانقباض ثم الغضب والخوف، والبهجة والعطف ولكن الغيرة تظهر في الشهر الثامن عشر، وأخيرا انفعال الفرح في عمر أربع ة وعشرين شهرا»[1].

ومن هنا فلهذه المرحلة أهمية في الحياة النفسية للطفل كونها بداية أولى لنمو شخصيته واكتمالها، كما أنها إعداد لنموه العقلي والجسماني والنفسي والاجتماعي.

3. مرحلة الطفولة المبكرة (من ثلاث إلى خمس سنوات):

تسمى أيضا مرحلة "ما قبل المدرسة" وفيها «يريد أن يكتشف الطفل كل ما يقع في متناول يده ويقع تحت سمعه وبصره أيضا، وهو لا يستمر في وضع الأشياء بفمه ولكنه يلمسها ويفحصها أيضا، ويسأل عنها مرات عديدة متكررة وهو يحتاج لبعض الوقت للنظر لبعض الأشياء من حوله، والتي يشعر باهتمام حولها سواء أكانت في شكل صور أم في الحياة الواقعية»[2].

إن الطفل في هذه المرحلة انتقل من التفكير بجسمه إلى التفكير بعقله، وهذا اعتمادا على خبرته الذاتية ، وإذا ما تتبعنا هذه المرحلة من الناحية الانفعالية الوجدانية وجدناها مزيجا من مجموعة من الحالات منها: «الغضب إلى حد التشنج والعدوان، والخوف إلى حد الذعر، والغيرة إلى حد التحطيم والحزن إلى حد الاكتئاب، والفرح إلى حد الابتهاج، ثم التذبذب السريع بين هذه الحالات من كائن يعيش في دقائق حياة لا نهاية لها من الألم، ثم فجأة تكون هذه الآلام قد غسلت وحلت محلها سعادة لا نهائية كل هذه المظاهر عادية نلاحظها جميعا بوضوح على طفل هذه المرحلة»[3].

فالطفل في هذه المرحلة مسلح بطاقة متزايدة وعادة ما تكون طاقة حركية، وانفعالية، فهو لا يستقر على حال، إلى درجة أنه يحرج من حوله ويضيّق عليهم، لكن تبقى هذه الطاقة إيجابية بالنسبة للطفل وذلك لأنه يستفيد منها في نموه والتنفيس عن مكنوناته «ويؤدي به هذا إلى النمو الجسمي الصحي السليم، وكذلك نموه النفسي السوي»[4].

---

[1]. سميح أبو مغلي وعبد الحافظ سلامة، التنشئة الاجتماعية للطفل، د.ط، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمان، 2013م، ص 41.

[2]. وفيق صفوت مختار، سيكولوجية الطفولة، ص ص 226، 227.

[3]. محمد عماد الدين إسماعيل، الطفل من الحمل على الرشد، ص 338.

[4]. محمد عبد الطاهر الطيب ورشدي عبده حنين ومحمود عبد الحليم منيسري، الطفل في مرحلة ما قبل المدرسة، د .ط، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ت، ص 84.

وإلى جانب الطاقة الحركية المتمثلة في الجري والمشي والتسلق هناك طاقة الكلام المزايدة فالطفل في هذه الفترة يكثر من الكلام والأسئلة «فقد أجمعت دراسات سيكولوجية على أن الطفل في هذه المرحلة يتميز بحب الاستطلاع وكثرة التساؤل عن كل شيء حوله، ولديه ميل شديد للتعرف على كل ما يحيط به، كما أنه يتعلم من خلال حواسه، والمعالجة اليدوية للأشياء، و[تعتبر] * هذه المرحلة بداية لنمو المفاهيم، كما يتميز الطفل فيها بالخيال الذي يجعله شغوفا بالاستماع إلى القصص التي تدور على ألسنة الحيوانات أو الشخصيات المحببة إليه ويكون إدراكه مبنيا على استخدام المفاهيم»[1].

ولم يغفل علماء النفس دور اللعب في اكتمال شخصية الطفل فهو في هذه الفترة بحاجة إليه من أجل تنمية خياله وتقوية قدراته العقلية وإشباع حاجاته النفسية، وهناك ما يعرف باللعب الإيهامي واللعب الإسقاطي والمقصود باللعب الإيهامي «أن يتطابق الطفل مع أدوات اللعب المتاحة أمامه، فأنت ترى الطفل ة تحمل عروسة وتدللها، وقد [تنهيها] ** عن عمل شيء (...) كل ذلك ما هو إلا تعبير صريح، وكشف لما تعانيه الطفلة في حياتها اليومية من جانب الأم أو الكبار من حولها (...) والمقصود باللعب الإسقاطي هو أن يسقط الطفل مشاعره، وميكانيزماته على اللعبة أو موضوع اللعبة مما يكشف أيضا عن كظومه ومعاناته، ومن ثم [يعتبر] *** اللعب من أهم وسائل التنفيس عند الطفل»[2].

هذه هي حالة الطفل في هذه المرحلة من النواحي الجسمية والعقلية والانفعالية، فهو كائن يعيش بلا حيلة، ولا تدبير، ولا روية ولا انتظار ، كائن يعيش حياة مليئة بالاض طراب والخلط والهلوسة، هذا إضافة إلى أنه يعاني مخاوف ونوبات غضب خصوصا عند إقامة الحواجز التي تقف أمام رغباته الاستقلالية، كما يعاني أيضا الغيرة والتي سببها تحول الاهتمام عنه بعد أن كان موضع اهتمام.

*وردت الكلمة في المتن على النحو التالي (تعتبر) والأصح (تعد).

**وردت الكلمة في المتن على النحو التالي (تنهيها) والأصح (تنهاها).

***وردت الكلمة في المتن على النحو التالي (تعتبر) والأصح (تعد).

[1]. كريمان بدير، الأسس النفسية لنمو الطفل، ط 02، دار المسيرة، عمان، 2010م، ص 55.

[2]. محمد عبد الطاهر الطيب ورشدي عبده حنين ومحمود عبد الحليم مينسي، الطفل في مرحلة ما قبل المدرسة، ص 85.

4. مرحلة الطفولة المتوسطة (من ستة أعوام إلى تسعة أعوام):

يتميز الطفل في هذه المرحلة بالاستقرار والثبات الانفعالي، ويكون هذا الاستقرار نسبيا مقارنة بمرحلة الطفولة المبكرة، فيصبح الطفل «قادرا على اتخاذ الأساليب السلوكية السليمة التي لا تلحق به الضرر حال إقدامه على الاستكشاف»[1].

حيث ينمو الذكاء الانفعالي للطفل، ويتعلم بذلك عدة مهارات منها «ضبط الذات، والحماس، والمثابرة، والدافعية الذاتية، ويتعلم الطفل كيف يضبط انفعالاته، وكيف يملك نفسه عند الغضب، وكيف يحل الصراعات وكيف يشارك الآخرين انفعاليا»[2].

ومن هنا كانت السيطرة على النفس أحد أهم مميزات هذه المرحلة فالطفل عندما يغضب لا يعتدي ماديا على مثير الغضب بل يكون عدوانه لفظيا هذا إضافة إلى أن «له القدرة على الحكم بنفسه على إنجازاته ما إذا كانت [على]* المستوى المطلوب أم لا».[3]

ويلاحظ على الطفل في هذه المرحلة «النمو في سرعة الانتقال من حالة انفعالية إلى أخرى نحو الثبات، والاستقرار الانفعالي، إلا أن الطفل لا يصل في هذه المرحلة إلى النضج الانفعالي، فهو قابل للاستثارة الانفعالية (وتكون لديه بقية من الغيرة والعناد)، ويبدي الطفل الحب ويحاول الحصول عليه بكافة الوسائل، ويحب المرح، وتتحسن علاقاته الاجتماعية والانفعالية مع الآخرين، ويقاوم النقد، بينما يميل إلى نقد الآخرين، ويشعر بالمسؤولية ويستطيع تقييم سلوكه الشخصي»[4].

فما نلحظهعن فترة الطفولة المتوسطة أن الطفل قد وصل إلى مستوى النمو الذي يمكنه من القيام بأعمال كثيرة واكتساب مهارات جديدة ، وما يبقى على الوالدين والمربين سوى مساعدته في السيطرة على انفعالاته وضبطها، وفهم مشاعره وتقبلها، وتنمية ذكائه الانفعالي.

---

[1]. وفيق صفوت مختار، سيكولوجية الطفولة، ص 277.

[2]. كريمان بدير، الأسس النفسية لنمو الطفل، ص 161.

*وردت الكلمة في المتن على النحو التالي (على) والأصح (في).

[3]. محمد عماد الدين إسماعيل، الطفل من الحمل إلى الرشد، ص 434.

[4]. كريمان بدير، الأسس النفسية لنمو الطفل، ص 152.

5. مرحلة الطفولة المتأخرة (من سن التاسعة إلى الثانية عشر):

ويطلق عليها البعض مرحلة "ما قبل المراهقة"، وذلك لأنها تشمل على تغيرات تمهد لمرحلة المراهقة، ومنها التغيرات الفسيولوجية والعقلية والانفعالية، ومن مظاهر النمو الانفعالي في هذه المرحلة نمو ا لاتجاهات الوجدانية للطفل فيكون الميل إلى المرح والنكت، كما تقل مظاهر الثورة الخارجية ويتعلم الطفل كيف يتنازل عن حاجاته العاجلة التي قد تغضب والديه وزيادة على ذلك يحاط ببعض مصادر القلق والضياع، ويستغرق في أحلام اليقظة كما يلاحظ عليه بعض الأعراض العصبية والقلق الذي يؤثر تأثيرا سيئا على نموه الفسيولوجي[1].

وهناك من يطلق على هذه المرحلة اسم مرحلة "الطفولة الهادئة" نظرا للاستقرار والثبات الانفعالي ، ويميل الطفل فيها بكثرة إلى الإنجاز حيث تقل المخاوف وتبدأ الميول المهنية بالظهور، فيزيد رصيد الخبرات لديه ويزود بمعارف وإنجازات جديدة.

6. مرحلة المراهقة (من اثرتي عشر إلى ثمانية عشر سنة):

تعد من المراحل المعقدة في حياة الطفل لأنها فترة انتقالية يعبر فيها من الطفولة إلى الرجولة أو الأنوثة «وبوجه عام فإن هذه الفترة تقابل مرحلتي التعليم الإعدادي (المتوسط، الثانوي)، عادة ما تحسب بداية المراهقة ببداية البلوغ الجنسي، ويمكن تحديد هذه الفترة في الدول العربية من الثانية عشر تقريبا حتى التاسعة عشر»[2].

إن المراهقة عالم مليء بالتناقضات، إذ تشكل فترة حرجة في حياة الطفل حيث تح صل له بعض التغيرات الجسدية والعاطفية والتي «تحدث بين الطفولة وسن الرشد، ولذلك يطلق عليها الأطباء سن البلوغ ويطلق عليها الأخلاقيون سن الشباب، ويطلق عليها علماء النفس اسم (المراهقة)، وتتفاوت مظاهر المراهقة تفاوتا كبيرا تبعا للجنس والبيئات المختلفة وبنية الأجسام والأمزجة النفسية»[3].

وفي هذه المرحلة يزداد حب المراهق للفوضى، وحب العزلة، والانسحاب «إذ يحتاج المراهقون إلى البقاء لوحدهم لوقت طويل في غرفهم سواء لسماع الموسيقى أو للرسم أو لإجراء محادثة هاتفية لا تنتهي مع أصدقائهم ويعد هذا سلوكا مألوفا عند المراهقين، ووسيلة مهمة من أجل دفع خطوات الانعتاق من الوالدين»[4].

---

[1]. كريمان بدير، الأسس النفسية لنمو الطفل، ص 162.

[2]. محمد عبد الرزاق إبراهيم وهاني محمد يونس ووحيد السيد حفيظ، ثقافة الطفل، ط 03، دار الفكر، عمان، الأردن، 2009م، ص 24.

[3]. سميح أبو مغلي وعبد الحفيظ سلامة، التنشئة الاجتماعية للطفل، ص 50.

[4]. مريم سليم، الاضطرابات النفسية عند الأطفال والمراهقين، ط 01، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 2010م، ص 210.

بالإضافة إلى ذلك نجد أن طفل هذه المرحلة ينزع إلى «ارتداء ثياب غريبة، وقص الشعر بطريقة مختلفة انسجاما مع الشلة»[1].

فهذه المرحلة لا تخلو من الاضطرابات والصراعات النفسية، ومن أهم مظاهر النمو الانفعالي ما يلي:

. التذبذب الانفعالي، وتقلب سلوك المراهق بين سلوك الأطفال وتصرفات الكبار.

. التناقض الانفعالي.

. السعي نحو تحقيق الاستقلال الانفعالي عن الوالدين وغيرهم (استقلال الشخصية).

. الخجل والانطواء والتمركز حول الذات نتيجة للتغيرات الجسمية المفاجئة.

. التردد نتيجة نقص الثقة بالنفس.

. تمتاز انفعاليته بالحساسية.

. يتعرض لحالات من الاكتئاب واليأس والقنوط، والانطواء.

. يزداد شعوره بذاته والتمرد على مصادر السلطة.

. يتجه نحو الثبات الانفعالي في نهاية المرحلة، وينزع نحو المثالية وتمجيد الأبطال[2].

[1]. مريم سليم، الاضطرابات النفسية عند الأطفال والمراهقين ، ص 210.

[2]. سميح أبو مغلي وعبد الحفيظ سلامة، التنشئة الاجتماعية للطفل، ص 50.

المبحث الثاني: الطفل وعلم الاجتماع

الإنسان كائن اجتماعي وميله إلى التجمع هام وقوي؛ فليس بإمكانه العيش بمعزل عن الناس وإلا فهو إنسان غير سوي. وأول ما يولد الإنسان طفلا يعيش في المجتمع العائلي المكون من الأب والأم والإخوة. فهو يولد عاجزا عن العناية بذاته من جهة، ومزودا بقدرة هائلة على التعلم من جهة أخرى، فالطفولة عند علماء الاجتماع هي«الفترة المبكرة من حياة الإنسان التي يعتمد فيها الفرد على والديه اعتمادا كليا فيما يحفظ حياته، ففيها يتعلم ويتمرن للفترة التي تليها فهي قنطرة يعبر عليها الطفل حتى النضج الاقتصادي، والفسيولوجي والعقلي ككائن اجتماعي سوي»[1].

غير أن علماء الاجتماع قد اختلفوا فيما بينهم في تحديد الفترة الزمنية التي يحياها الإنسان طفلا. وبالرغم من أنهم اتفقوا على أن مرحلة الطفولة تبدأ من ميلاد الطفل، فإنهم اختلفوا في نهايتها «فالبعض أنهاها بالثانية عشر من العمر والبعض الآخر بالبلوغ، ومنهم من وضع سن الرشد كأعلى سن للطفولة، بينما نجد علماء النفس قد حددوا بداية مرحلة الطفولة ببداية تكوين الجنين في رحم أمه ونهايتها بدخول مرحلة البلوغ الجنسي»[2].

فالطفولة تعد أهم المراحل الحياتية للإنسان بوصفها مرحلة تكوين النشء وإعداده ففيها تغرس البذور الأولى للشخصية، يقول الفيلسوف الإنجليزي "جون لوك": «يولد الطفل وعقله صفحة بيضاء تنقش عليها التجربة»[3].

ويطلق على هذه العملية اسم التنشئة الاجتماعية التي تهتم بالأبعاد الاجتماعية والثقافية، دون إهمال الجانب البيولوجي، غير أن الجانب الاجتماعي والثقافي من الموجهات الأساسية لسلوك الفرد في المجتمع، فالتنشئة الاجتماعية إذن هي غرس البعد الثقافي والاجتماعي في بناء الشخصية الإنسانية، حيث تقوم الأسرة ومؤسسات المجتمع بتلقين الطفل قيم المجتمع وثقافته فتتشكل لديه مكونات وقيم ثقافية توجهه إلى طبيعة السلوكات التي ينبغي إنجازها في السياق الاجتماعي، ويجب أن تتطابق هذه القيم التي استوعبها مع قيم المجتمع[4].

والتنشئة الاجتماعية للطفل حسب علم الاجتماع تبدأ من لحظة ولادته حتى رشده مخالفا بذلك قول علم النفس الذي يهتم بمرحلة ما قبل الولادة ويعدها مرحلة من مراحل التكوين النفسي للطفل، وأول المراحل حسب علم الاجتماع أو ما يعرف بالنمو الاجتماعي هي:

---

[1]. إبراهيم مذكور، معجم العلوم الاجتماعية، ط 01، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1975م، ص 369.

[2]. نبيلة رسلان، حقوق الطفل في القانون المصري، ط 01، دار النهضة العربية، الإسكندرية، 1996م، ص 38.

[3]. عبد الرحمان العيسروي، حقوق الطفل في ضوء الدراسات النفسية الحديثة، المؤتمر القومي حول مشروع اتفاقية حقوق الطفل، الإسكندرية، 1988م، ص 14.

[4]. محمد عبد الرزاق إبراهيم وهاني محمد يونس ووحيد السيد حافظ، ثقافة الطفل، ص 193.

1. مرحلة الرضاعة:

تمتد هذه المرحلة من الميلاد حتى نهاية السنة الثانية وتبدأ بالعلاقات الاجتماعية في إطار الأسرة «حيث تنشأ روابط اجتماعية بين الطفل وبين أشخاص لهم في حياته اعتبار خاص كالوالدين والأقارب والمربيات والأنداد، على أن النمو الاجتماعي للرضيع يدور على وجه الأخص حول العلاقات الإنسانية المتبادلة بين الآباء وغيرهم ممن يقومون على حضانة الطفل أساسا» [1]. يكون هذا في العام الأول الذي يعد أساس يليفي توجهاته الاجتماعية في المستقبل، كما أن الإهمال في هذه الفترة يحرم الطفل من اكتساب أبجديات التعامل مع الأشخاص في مقبل الأيام.

أما في العام الثاني فتتسع البيئة الاجتماعية لدى الطفل لامتلاكه القدرة على المشي والانتقال، وتبدأ العلاقات مع أقرانه وتكون هذه العلاقة مبنية على مبدأ المنافسة، فيميل الأطفال إلى الشجار والنزاع واللعب غير التعاوني. وبالرغم من اتساع البيئة الاجتماعية للرضيع في العام الثاني فإنه يرفض التعاون معها ويقتصر تعاونه مع الأم؛ فهي التي تكون النواة الأولى لاتجاهاته و سلوكه الاجتماعي نحو الآخرين مستقبلا[2].

2. مرحلة الطفولة المبكرة:

هي مرحلة رياض الأطفال و«يطلق عليها مرحلة ما قبل المدرسة وتمتد من نهاية مرحلة الرضاعة حتى دخول المدرسة»[3]، أي من سن الثالثة حتى الخامسة ، وهذه السنوات من أهم مراحل النمو الاجتماعي والنفسي والعقلي والجسماني للطفل: «إذ هي السنوات التي يتم فيها تشكيل شخصيته الإنسانية ووضع اللبنات الأولى لبناء الإنسان وتحديد اتجاهاته وميوله وغرس قيم وتقاليد المجتمع لديه» [4]. ويحتاج الطفل في هذه المرحلة أن يتعلم كيف يعيش مع نفسه ومع الآخرين، حيث يزداد وعيه بالبيئة الاجتماعية وتتسع دائرة علاقاته ويزداد تفاعله مع المحيط ، إذ تنمو صداقاته ويميل إلى المنافسة «كما تظهر القيادة والزعامة كسمة لهذه السن ويتحدد القائد أو الزعيم بين الأقران، ويكون ذلك على أساس الجرأة والإقدام والمهارة في الألعاب»[5].

---

[1]. محمد عماد الدين إسماعيل، الطفل من الحمل إلى الرشد، ص 236.

[2]. محمد عبد الطاهر وآخرون، الطفل في مرحلة ما قبل الدراسة، ص 67.

[3]. سميح أبو مغلي، عبد الحفيظ سلامة، التنشئة الاجتماعية للطفل، ص 43.

[4]. كريمان بدير، الأسس النفسية لنمو الطفل، ص 55.

[5]. أحمد عبد الله العلي، الطفل والتربية الثقافية، رؤية مستقبلية للقرن الحادي والعشرين، د.ط، دار الكتاب الحديث، مصر، 2002م، ص 19.

تشهد هذه الفترة تغيّر سلوكات الطفل الاجتماعية وتظهر عبر فروق جنسية ؛ حيث يميل الذكور إلى العدوان أكثر من الإناث، ويبحث الطفل في هذه الفترة عن الاستقلال فيرفض بعض الالتزامات التي يفرضها عليه الأبوان، غير أنه لا يتملص من مساعدتهما في نهاية المرحلة ويأخذ منهما المعايير الاجتماعية.

3. مرحلة الطفولة المتوسطة:

تمتد هذه المرحلة من سن السادسة إلى التاسعة، ويطلق عليها مرحلة التمدرس أي سن التحاق الطفل بالمدرسة، وفي هذه المرحلة تتسع البيئة الاجتماعية للطفل بسبب انتسابه للمدرسة التي تعد «البيئة الثانية التي يواصل الطفل فيها نموه وإعداده للحياة المستقبلية (...) فهذا المجتمع الجديد مجال واسع للتدريب والتعليم والتعامل مع الغير والتكيف الاجتماعي»[1].

يميل أطفال هذه المرحلة إلى اللعب الجماعي التعاوني لتحقيق ذواتهم ضمن جماعة الرفاق ، كما تكون الصداقة محدودة من حيث عدد الأصدقاء، وينظر الطفل إلى رفاقه على أنهم حلفاء ويعدهم أحيانا أكثر أهمية من أفراد الأسرة؛ لذلك يفضل قضاء معظم الوقت معهم. ويكون العدوان في هذه الفترة أكثر شيوعا من الفترات السابقة، وللذكور النصيب الأكبر منه إذ إنهم يميلون إلى العدوان اليدوي بينما الإناث تملن إلى العدوان اللفظي. كذلك يكون الذكور أكثر خشونة واستقلالا بينما الإناث أك ثر تعاونا ورقة، كما تتجلى ظاهرة الفروق الجنسية بانفصال الجنس الواحد عن الآخر أثناء اللعب؛ إذ يميل الذكور إلى التجمع معا وتقدم البنات على نفس العمل.

يتميز النمو الاجتماعي في هذه المرحلة بسمات عدة، إذ يسعى الطفل إلى تحقيق الاستقلال وزيادة الاعتماد على الذات تماشيا مع «نمو الضمير ومفاهيم الصدق والأمانة والخضوع للقيم الاجتماعية ونمو الوعي الاجتماعي والمهارات الاجتماعية التي تمكنه من تحقيق التكليف»[2].

في هذه المرحلة تكون المدرسة لاعبا أساسا في عملية التنشئة الاجتماعية جنبا إلى جنب مع الأسرة، فالمدرسة تساهم مساهمة فعالة في بناء شخصية الفرد، وكذا تساهم في النمو الاجتماعي واتساع دائرة معارفه وزملائه فهي تساعده على معرفة ذاته وتقبل الآخرين وفهم ما يحيط به بشكل أدق.

[1]. محمد عبد الرزاق وآخرون، ثقافة الطفل، ص 103.

[2]. سميح أبو مغلي وعبد الحافظ سلامة، التنشئة الاجتماعية للطفل، ص 47.

4. مرحلة الطفولة المتأخرة:

هي المرحلة السابقة لفترة المراهقة يكون فيها الطفل أكثر نضجا اجتماعيا ونفسيا. وتمتد من سن التاسعة حتى الثانية عشر وهو سن الانتقال من المدرسة الابتدائية إلى الإعدادية.

في هذه المرحلة يكون الطفل واعيا بذاته وخصوصيتها، وينمو لديه الشعور بالمسؤولية والقدرة على فهم المعايير الاجتماعية، فيصبح أكثر قدرة على التمييز بين الخطأ والصواب، وأكثر قدرة على تقييم السلوك لنمو حس الضمير لديه.

كما يميل إلى مصاحبة الكبار وكسب قيمهم واتجاهاتهم لكنه يرفض نقدهم له، إضافة إلى ذلك فطفل هذه المرحلة ينمو لديه الشعور بالانتماء للمؤسسات والجماعات، مثل المدرسة وكذا الوطن وجماعة الرفاق الذين يختارهم هو بنفسه بعد أن كانوا يفرضون عليه من قبل الأسرة، وهنا ينمو لديه الشعور بالمسؤولية الجماعية، وفي هذه الفترة يميل الطفل إلى الاستقلالية أكثر في اتخاذ بعض القرارات، ويرفض ما يفرض عليه من قبل الأسرة. غير أن ما يميز هذه المرحلة هو الاستقلال الجنسي حيث «يبتعد كل من الجنس في الصداقة عن الجنس الآخر ويظل الأمر على هذا النحو حتى سن المراهقة »[1].

إن هذه التغيرات في الجانب الاجتماعي في هذه المرحلة تهيئ الطفل للعيش في عالم أوسع مما كان عليه وتعد مقدمة للنقلة الحادثة في مرحلة المراهقة.

5. مرحلة المراهقة:

إن مرحلة الطفولة المتأخرة وفترة المراهقة تعدان أهم مراحل النمو الاجتماعي والنفسي، والثقافي، والجسماني في حياة الفرد. فهما متداخلتان والمراهق يستمر في تعلم القيم والمعايير الاجتماعية من الأشخاص الهامين في حياته. وتعد هذه المرحلة مرحلة التطبيع الاجتماعي وتمتد في الغالب حسب علماء الاجتماع من سن الثانية عشر إلى التاسعة عشر ويليها سن الرشد بعد ذلك.

تشهد فترة المراهقة ازدياد ثقة المراهق بنفسه وتوسع أفق نشاطه الاجتماعي؛ إذ إنه يسعد بمشاركة الآخرين في الخبرات والمشاعر، ويميل إلى الاهتمام بشخصه وإبراز ذاته، إذ ينزع إلى الاستقلال وحب الزعامة. وينمو ذكاؤه الاجتماعي ويكون المراهق محبا لجملة من القيم منها التضحية وأداء الواجب بذكاء، ويميل الذكور إلى قيم الرجولة

[1]. سميح أبو مغلي وعبد الحافظ سلامة، التنشئة الاجتماعية للطفل ، ص 49.

بينما المراهقة تتقمص القيم الأنثوية، غير أن ما يميز هذه المرحلة التي تعرف بمرحلة النضج الجنسي عند علماء النفس ومرحلة النضج الاجتماعي عند نظرائهم في علم الاجتماع هو:

. رغبة المراهق في توجيه الذات والسعي لتحقيق التوافق الشخصي والاجتماعي والميل للجنس الآخر وزيادة التآلف والتفاعل[1].

ومما سبق يتضح أن عملية التنشئة الاجتماعية تمر عبر مراحل، فشخصية الطفل تبنى عن طريق مجموعة من الآليات والمؤسسات ابتداء من الأسرة التي تعد المصدر الأول من مصادر التربية الاجتماعية فهي «بمثابة العامل الأساسي في تشكيل الشخصية في مرحلة تتميز بقابلية الطفل فيها للتشكيل والتكوين»[2].

فهو يتأثر باتجاهات الوالدين وميولاتهما ، فالسمات الأساسية للسلوك الاجتماعي للفرد ترجع للمراحل الأولى من حياة الطفل، وإلى علاقاته بأفراد أسرته واتجاهات هؤلاء الأفراد وأنماط سلوكهم.

كما أن للمدرسة الدور الكبير أيضا في تكوين شخصية الطفل «كونها البيئة الثانية التي يواصل الطفل فيها نموه وإعداده للحياة المستقبلية»[3]. حيث تعمل على تهذيب سلوكه الاجتماعي وتعديله من أجل تهيئته للتعامل مع الحياة بشكل سليم، وتدريبه على التعامل مع الغير وتكيفه اجتماعيا وأخلاقيا.

ولا يمكن إهمال دور المجتمع أيضا حيث لا تكتمل شخصية الطفل إلا في إطاره، فشخصية الطفل الفرد في صورتها النهائية ما هي إلا نتيجة لتفاعلات بين المجتمع الصغير الذي هو الأسرة ونشاطه في إطار المجتمع الكبير.

[1]. سميح أبو مغلي وعبد الحافظ سلامة، التنشئة الاجتماعية للطفل، ص 51.

[2]. محمد عبد الرزاق إبراهيم وهاني محمد يونس ووحيد السيد حافظ، ثقافة الطفل، ص 45.

[3]. المرجع نفسه، ص 103.

المبحث الثالث: الطفل في المخيال الأدبي

إن الطفولة في الأدب والفنون توظف بوصفها معنى وليس مرحلة معينة من عمر الإنسان، ذلك لأن الأدب والفن في جوهرهما حلم وخيال واكتشاف أو قل نزوة صبيانية عابرة، لذلك قد وظفت الطفولة في الأدب ما شاء لها أن توظف، فكان ذلك تصويرا من الأدباء والشعراء لمظاهر هذه المرحلة أو هروبا منهم إلى ذلك العالم البريء. والمتتبع لتاريخ الأدب العربي سيلاحظ أن الطفولة كثيرا ما احتفى بها الشعراء والأدباء على حد سواء، وعبر كافة المراحل التاريخية للأدب.

أولا: الطفولة في الشعر

إن الحديث عن موضوع الطفل والطفولة في الشعر لم يكن وليد العصر أو موضوعا جديدا، فقد احتل حيزا لا بأس به في مجال الشعر عبر المراحل العمرية للشعر العربي كلها.

أ- الطفولة في الشعر الجاهلي:

لقد أخذت صورة الطفل في الشعر الجاهلي عدة أبعاد، تماما كتلك الأبعاد التي يحملها الشعر عموما وهي: الأبعاد الدينية، والنفسية، والاجتماعية. فالمتتبع لصورة الطفولة في أشعار الجاهليين يجدها تحمل عدة إشارات دينية «فصورة الطفل في الفكر الجاهلي هي امتداد لصورته في التراث الإنساني، تلك الصورة التي ارتفعت من مرتبة البشرية إلى الألوهية المطلقة»[1]. يتجلى ذلك في معلقة "عمرو بن كلثوم" حيث يقول:

إِذَا بَلَغَ الْفِطَامَ لَنَا صَبِيٌّ تَخَرُّ لَهُ الجَبَابِرُ سَاجِدِينَا[2]

صورة الطفل هنا هي صورة المعبود فهو إله يخر له العظماء والجبابرة سجدا، لذلك يهابه الأعداء ولو كانوا ذوي قوة وبأس شديد. إن هذه النظرة الدينية للطفل عند العرب لا تنفصل عن الفكر القديم لباقي الأمم، ففي الشعر اليوناني عد الطفل نصف إله وفي الروماني إلها.

إن صورة الطفل في الشعر الجاهلي حملت كذلك بعدا نفسيا، إذ نجد مثلا أعرابية تعبر عن أساها وحزنها لفقدان ولدها فتصفه قائلة:

يَا حَسْرَتَا عَلَى وَلَدِ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِالأَسَّدِ

[1]. ربى شرحادة، صورة الطفل في الشعر الجاهلي، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2013م، ص 100.

[2]. الزوزني (أبو عبد الله الحسين بن أحمد)، شرح المعلقات السبع الطوال، ط 01، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، د.ت، ص 210.

إِذَا الرِّجَالُ فِي كَبَدِ تَغَالَبُوا عَلَى نَكَدِ
كَانَ لَهُ حَظُ الأُسَدِ[1]

فهذه الأم الثكلى ترثي ولدها في شعر حزين، وتشبهه بالأسد في صفاته وحظه في النكد والهموم.

ووصف "النابغة" الذبياني الحالة النفسية المسيطرة على الطفل في الحرب قائلا:

وَهُنَ كَأَنَّهُنَ نِعَاجُ رَمْلٍ يُسَوِّينَ الذُيولَ عَلَى الخِدَامِ
يُوَصّينَ الرُواة إِذَّا أَلَمُّوا بِشُعْثٍ مُكَرَّهِينَ عَلَى الفِطَامِ[2]

هذان البيتان يعكسان ما يتعرض له الأطفال في الحروب من خوف وهلع وما ينتاب الأمهات من حزن على وضع أبنائهن وخوفهن عليهم.

وبالإضافة إلى البعد الديني والنفسي لصورة الطفل في الشعر الجاهلي نجد البعد الاجتماعي لكون الشعر مرآة عاكسة لواقع العرب آنذاك، وهو كذلك مرآة عاكسة لحياة الأطفال اجتماعيا إذ يصور كيف يتم غرس القيم الإنسانية في نفوسهم البريئة يقول "قيس بن عاصم":

أَشْبِهْ أَبَاْ أُمَّكَ أَوْ أَشْبِهْ جَمَلْ وَلاَ تَكُونَنَّ كَهَّلِوْفٍ وَكَــــلْ
يَبِيتُ فِي مَقْعَدِهِ قَدْ انجَدلَ وَارْقَ إِلَى الخَيْرَاتِ زَنَأً فِي الجَبَلْ[3]

فعبارة (أشبه أبا أمك أو أشبه جمل) تحمل في طياتها بعدا اجتماعيا هو النسب الشريف وسمو مكانة الطفل بين قومه، وهذا تصوير لأبناء الشرفاء في النظام القبلي الذي كان سائدا آنذاك.

ولقد شغلت صورة الطفل أثناء الحروب مساحة شاسعة في الشعر الجاهلي، وهذا لكثرة الصراعات التي كانت تخاض وتثار بسبب النزعة الانتقامية والعصبية القبلية. فها هو "المهلهل" يصف ما كانت تلاقيه الطفولة من قتل وتنكيل إذ يقول:

قَدْ ذَبَحنَا الأَطْفَالَ مِنْ آلِ بَكْرٍ وَقَهَرْنَا كَمَاتَهُمْ بِالنِضَالِ
وَكَرَرْنَا عَلَيــهِم وَانْثَنَــيْــنَــا بِسُيُوفٍ تَقُدُّ فِي الأَوْصَالِ[4]

---

[1]. ابن عديم (كمال الدين عمر بن أحمد)، الدراري في ذكر الذراري، تح: علاء عبد الوهاب محمد، ط 01، دار السلام للنشر والتوزيع د.ب ، 1989م، ص 17.

[2]. النابغة الذبياني، الديوان، ط 01، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1991م، ص 135.

[3]. الراغب الأصفهاني (الحسين بن محمد)، محاضرات الأدباء ومحاورات البلغاء، ط 01، دار الأرقم بن أبي الأرقم للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1999 م، ج 01، ص 329.

[4]. المهلهل بن ربيعة، الديوان، تح: أنطوان محسن القوال، ط 01، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1995م، ص 74.

وتتجلى أيضا صورة الطفل في الشعر الموجه للأطفال، الذي يتميز بالألفاظ البسيطة والسهلة. ويتم في الغالب وصف الولد فيه بصورة حسنة محببة إلى نفوس الأطفال، تقول أعرابية وهي تغرد لولدها:

يَا حَبَّذَا رِيحُ الوَلَدِ رِيحُ الخُزَامِى فِي البَلَدِ

أَهَكَذَا كُلّ وَلَدْ أَمْ لَمْ يَلِدْ قَبْلِي أَحَدِ[1]

فهذه الأعرابية تصف ريح ابنها بريح الخزامى ذات الذوق الطيب، غير أن هذا المقطع يحمل مشاعر الأمومة النبيلة فكل أم يخيل إليها أن ولدها مميز عن أقرانه. وأما أعرابي آخر فيصف ابنته قائلا:

كَرِيمَةً يُحِبُهاَ أَبُوهَا مَلِيحَةُ العَيْنَيْنِ عَذْبًا فُوهَا

لاَ تُحْسِنُ السَّبَّ وَإِنْ سَبُّوهَا[2]

فصورة البنت هنا كما يصفها والدها حسنة المحيا، بهية الطلعة والإشراقة وذات خلق نبيل .

وعلى العموم فصورة الطفل التي رسمها الشعراء الجاهليون مستمدة من واقع حياتهم، ولم يفرد الشاعر الجاهلي لوحة شعرية في قصيدته للحديث عن الطفل بوصفه موضوعا مستقلا. بل جاء مقترنا بأغراض أخرى (كالمدح، الفخر، الهجاء، الوصف).

ب- الطفولة في الشعر العباسي:

شهد العصر العباسي تحولا جوهريا في ميدان الأدب والشعر العربي، وهذا مرتبط بالتطورات السياسية، والاجتماعية، والثقافية آنذاك، فشعراء هذا العصر لم يكادوا يذكروا مضمونا حياتيا إلا وتحدثوا عنه وأسهبوا في تفصليه، وهذا يدل على عمق ثقافة الشاعر العباسي، فقد تحدثوا عن كل كبيرة وصغيرة.

وكان الأطفال أحد تلك المضامين الحياتية التي طرقها الشعراء، وقد تجلت صورة الطفل في الشعر العباسي في فن الرثاء، فبرزت في كامل فنيتها لأنها نابعة من عاطفة صادقة هي عاطفة الأمومة والأبوة، فأصعب شئ على الوالدين فقدان فلذات كبديهما خصوصا إذا كان المفقود صغير السن يافع النبت «وكان الشعراء العباسيون في كثير من الأحيان يلجأون للتعبير عن موت أبنائهم وهم في سن قصير إلى مظاهر الطبيعة التي تتسم بقصر عمرها، لأنها تكون أكثر إيحاء ودلالة على حداثة أعمار أطفالهم الذين اختطفهم الموت »[3].

---

[1]. ابن العديم (كمال الدين عمر بن أحمد)، الدراري في ذكر الذراري، ص 23.

[2]. ابن عبد ربه الأندلسي (أحمد بن محمد)، العقد الفريد، تح: عبد المجيد الترحيني، ط 01، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1983م، ج 04، ص 87.

[3]. ثائر سمير الشمري، "الأطفال في الشعر العباسي"، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية والأدب والفنون، ع 01، كلية التربية الأساسية، جامعة بابل، جوان 2012م، مج 02، ص 251.

فقد عمد "بشار بن برد" في رثاء ابنه "محمد" الذي فجع به إلى تشبيهه بالريحان، الذي يدل على حسن اللون الأخضر الجميل وهذا يعكس صفات فترة الطفولة (النقاء ، والجمال...) حيث يقول:

وَكَانَ كَرَيْحَان العَرُوس بَقاؤُهُ ذوَى بَعدَ إشراقِ الغُصُون وَطَيبِ [1]

أما الشاعر "التهامي" فإنه يصور طفله الذي لقي حتفه بأنه كوكب قصير العمر، وهذا هو حال كواكب الأسحار التي تبرز وتختفي بسرعة إذ يقول:

وَيَا كَوكَبًمَا كَانَ أَقْصَرَ عُمرُه وَكَذَا تَكُونُ كَوَاكِبُ الأَسْحَارِ [2]

وفي قصيدة أخرى له يصف ولده بالهلال الذي لم يصبح بدرا أبدا حيث أفل نوره قبل أوانه، يقول:

وَهِلَالَ أيّامٍ مَضَى لَمْ يَسْتَدِرْ بَدْرًا وَلَمْ يُمْهَل لِوَقْتِ سِرارِ

عَجِلَ الخُسُوفُ عَلَيه قَبْلَ أَوَانِهِ فغَطَّاهُ قَبْلَ مَظِنّةِ الأَبْدَارِ [3]

ولم يقتصر ذكر صور الأطفال في الشعر العباسي ضمن غرض الرثاء، بل تعدى الحديث عنها إلى موضوعات أخرى مثل التهنئة بالمولود، فقد هنأ ابن الرومي أحد الخلفاء بابن رزق به جاعلا من الولد بدر البدور، وصنديد الصناديد فقال:

يَا ابْنَ الوَزِيرَيْنِ وابْنَ السَّادَةِ الصَّيد يَا سَيِّدًا غَيْرَ مَظْلُومٍ بتَسْوِيدِ

لَـكَ الهَنَاءَ بِمولُودٍ أقرّ بِـــــهِ عَيْنَيْ أَبِي النَّجْمِ مَوْلَى كُلِّ تَمجيدِ

وَكَانَ أَهْلاً لِمَا يُولاَهُ مِنْ حَسَنِ بَدرُ البُدُورِ وَصِنْدِيدُ الصَّنَادِيدِ [4]

ولم يغب موضوع الأطفال عن غرض المدح «إذ استثمر بعض الشعراء العباسين الأطفال، بوصفهم أسلوبا جديدا في المديح فبدأوا الإشادة بممدوحيهم من خلال الطفولة »[5]. فها هو "التهامي" حين يمدح قومه يأتي على ذكر أطفالهم ويصرح بأنهم نجباء كالمهور الأصيلة إذ يقول:

تُذَكِرُ أَعْوَادَ المرابر جـدّه وآبَاءَه والأَمْر يُذَكَرُ بِالأَمْرِ

فَلَوْ أَنَّ أَعْوَاد المنابر أُنْصِفت لَمَا نُصِبَتْ يَوْمًا لِغَيْرِ بَنِي الطّهرِ

---

[1]. ثائر سمير الشمري، "الأطفال في الشعر العباسي"، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية والأدب والفنون، ع 01، كلية التربية الأساسية، جامعة بابل، جوان 2012م، مج 02، ص 251.

[2]. التهامي (أبو الحسن علي بن محمد)، الديوان، تح: محمد بن عبد الرحمن الربيع، ط 01، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1982م، ص 309.

[3]. المصدر نفسه، ص ن.

[4]. ابن الرومي، الديوان، تح: أحمد حسن بسج، ط 03، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2002م، ج 01، ص 457.

[5]. ثائر سمير الشمري، "الأطفال في الشعر العباسي"، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية والأدب والفنون، ع 01، ص251.

تَبَّيَنُ فِي الطِفْلِ النَجَابَةَ مِنْهُمُ كَمَّا يَسْتَبِينُ العَتْقُ والسَبْقُ فِي المهرِ [1]

وإذا كان الشاعر"التهامي" أتى على ذكر خصال أطفال قومه، فإن أحد الشعراء المتكسبين أتى على مدح ممدوحة ثم توسل بأطفاله واصفا حالتهم المزرية،كي يجزل الممدوح لأبيهم العطاء فقال:

فَارَقْتُ أَطْفَالِي وَقَدْ مَنَّيْتُهُمْ ووَعَدْتُهُمْ بِالخَيْرِ مِنْ جَدْوَاكَ

فَتَعَطَفِي فَضْلاً عَلَيْهِم وَارْحَمِي بُهْمًا سَمَاؤُهُمْ السَكُوبُ يَدَّاكَ

فَهُمْ كَزَغبِ الطَيرِ فِي أَعْشاشِهَا خُمصُ الحَوَاصِلِ يَنْظُرُونَ نَدَاكَ [2]

ترك اليتم بصمته في نفوس الشعراء والأطفال على حد سواء فاليتيم يختلجه شعور بالنقص، و يجني عليه الدهر كله وهذه الفئة من المجتمع قد أسرت ألباب الشعراء وأثارت عاطفتهم، لهول ما تلقى من العذاب النفسي نتيجة الإحساس بالحرمان يقول "ابن الزيات":

أَلاَ مَنْ رَأَى الطَفْلَ الْمُفَارِقَ أُمّه بُعَيدَ الكَرَى عَينَاهُ تَنْسَكِبَانِ

رَأَى كُل أُم وَابنَها غَيَر أُمّـــــه يَبِيتَانِ تَحْتَ اللَيلِ يَنْتَحِيَانِ

وَبَاتَ وَحِيدًا فِي الفِرَاشِ تَجَنُّه بَلاَبِل قَلبٍ دَائِم الخَفَقَانِ [3]

ومما سبق يتبين أن موضوع الطفولة قد تعددت مواطن ذكره، وبذلك اختلفت صورها التي رسمتها ريشة الشعراء العباسيين ومخيلاتهم.

ج- الطفولة في الشعر العربي الحديث والمعاصر:

تشهد الساحة العربية ومنذ عقود أزمات سياسية ترتبت عليها صراعات داخلية بين الأشقاء أبناء الوطن الواحد، علاوة على ذلك ظل الوطن العربي محل أطماع استعمارية أجنبية. إن هذه الأوضاع المضطربة فرضت على الساحة الأدبية وخصوصا الشعر نمطا جديدا يختلف عن سالفه في الشكل أو المضمون وكذا فيهما معا.

إن المتابع لحركة الشعر العربي الحديث يلاحظ بروز موضوع الطفولة فيه بشكل كثيف، وهذا راجع إلى طبيعة المرحلة إذ شهد الوطن العربي في هذا العصر ظهور حركات تحررية، سعت لإنقاذ الوطن العربي الكبير والأمة من قبضة الاستعمار، فها هو التونسي "أبو القاسم الشابي" في قصيدته "الجنة الضائعة" يختصر حكاية الطفولة ويصور سعادتها رغم الآلام والجراح التي تنخر جسد الأمة، يقول:

---

[1]. التهامي (أبو الحسن علي بن محمد)، الديوان، تح: محمد بن عبد الرحمن الربيع، ص 327.

[2]. ابن الهبارية، شعر ابن الهبارية، جع تح: محمد فائز سنكري طرابيشي، د.ط، مطابع وزارة الثقافة وإحياء التراث العربي، دمشق، 1997م، ص 166.

[3]. ابن الزيات (محمد بن عبد الملك بن أبان)، ديوان ابن الزيات، مخطوط المكتبة الأزهرية، رقم 22، ص 42.

إلاَّ الطُّفُولَة حَولنَا تَلهُو مَعَ الحُبِّ الصَغِيرِ
وَوَدَاعَةُ العُصْفُورِ، بَيْنَ جَداولِ الماءِ الْمُنِيرِ
وَتَتَبعُ النَّحلَ الأَنِيقَ وَقَطْفِ تِيجَانِ الزُّهُورِ
وِبِلِهُ أَكواخَ الطُّفُولَةَ تَحتَ أَعْشَاشِ الطُّيُورِ
وَنَظَّلُ نَرْكُضُ خَلْفَ أَسْرابِّ الفَرَاشِ الْمُسْتَطِيرِ
نَشْدُو، ونُرْقُصُ -كَالبّلَابِلِ- لِلحَيَاةِ وَللحُبُورِ[1]

إن الشابي في هذا المقطع يصور عالم الطفولة وما تحمله من براءة، ففي خضم الصراع وانتكاسة الوطن وجملة المعاناة يلهو الأطفال —عبثا- غير عابئين بعالم الكبار.

أما "القروي" فإنه يصور ما تعانيه الطفولة في ظل الأزمات الأمنية التي يشهدها الوطن العربي فهي كالفراشة المكسورة الجناح حسب قوله:

مَا للفَرَاشَةِ لاَ تَطَير مَطْرُوحَةٌ بَينَ الزُّهُورِ
هَذَا الجَنَاحُ جَناحها فِي الحُسْنِ مُنْقَطعِ النَّظِيرِ
(...)
فَدَنَوتُ اخْتَلِسُ الخُطَى مُترفِقًا كَيْ لاَ تَطِيرْ
وَطَرَحْتُ نَفْسِي فَوقَهَا وَيْلَ الصَّغِيرِ مِنَّ الكَبِيرِ
فَإِذَا الفَرَاشَةُ زَهرَةٌ وإذَا الْمُتَيم فِي غُرُورٍ[2]

إن الشاعر"البياتي" ينحى نفس منحى "القروي" في تصوير معاناة الطفولة المحرومة، يقول في قصيدته التي عنونها بـ "طفولة":

أصدمت الفَرَاشَاتُ، وَقَعَتْ فِي شِرَاكِ النِورِ
وَسُحُب الخَرِيفِ وَالغَابَاتِ وَالزُّهُورِ
كَلَّمْتُ نَجمَةَ الصَبَاحِ، قُلْتُ يَا صَّدِيقَة
أَتُزْهِرُ الحَدِيقَة
وَتُولَدُ الحَقِيقَة

[1]. أبو القاسم الشابي، ديوان أبي القاسم الشابي، ط 04، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2005م، ص 74.
[2]. الخوري رشيد سليم، ديوان القروي، ط 01، مطبعة صفدي، سان باولو، البرازيل، 1952م، ج 01، ص 161.

مِنْ هَذِهِ الأُكْذُوبَة البلْقَاء

طُفُولَتِي الشَّقِيَة الحَمْقَاء

فَـــرَاشَةٌ عَمْيَـــاء[1].

إن هذا المقطع يصور علامات التشرد والشقاء، ومحاولة الطفل (الذي تبنى الشاعر طفولته) أن يعيش طفولته كباقي الأطفال إلا أنه لا يستطيع ذلك، فأصبح رمز الفراشة يدل على الطفولة اليائسة المحرومة.

تعد نكسة "حزيران 1967م" صدمة قوية للفكر العربي إذ أصيب بشعور الانهزام بعد تفاؤل كبير. فتراجع دور الحركات التحررية ودب الفكر الانهزامي وسط الرأي العام العربي، ولم تسلم منه حتى النخبة. فكان لهذه النكسة أثرها العظيم في الشعر العربي المعاصر، و بدأ الشعراء بعد هذا التاريخ يصورون واقع الأمة العربية، ولم يكن هذا التصوير بمعزل عن تصوير الطفل والحرب.

ففي قصيدة "نزار قباني" "هوامش على دفتر النكسة" التي تخاطب الأطفال بما يتجاوز فهمهم البريء:

يَا أَيُّهَا الأَطْفَالُ....

مِنَ المُحِيطِ للخَلِيجِ، أَنْتُمْ سَنَابِلُ الآمَالِ

وَأَنْتُمْ الجِيلُ الذِي سَيَكْسِرُ الأَغْلاَلَ

(...)

يَا أَيَّهَا الأَطْفَالُ أَنْتُمْ – بَعْدُ طَيِّبُونَ

وَطَاهِرُونَ، كَالنَدَى وَالثَلْجِ، طَاهِرُونَ

لاَ تَقْرَأُوا عَنْ جِيلِنَا المهزُومِ.. يَا أَطْفَالُ

فَنَحْنُ خَائِبونَ.

..

(...)

يَا أَيُّهَا الأَطْفَالُ:

(...)

[1]. عبد الوهاب البياتي، ديوان البياتي، ط 04، دار العودة، بيروت، لبنان، 1990م، مج 02، ص 63.

أَنْتُمْ بُذُورَ الخَصْبِ فِي حَيَاتِنَا العَمِيقَة

وَأَنْتُمْ الجِيلُ الذِّي سَيَهْزِمُ الهَزِيمَةْ[1]

فنزار في هذه القصيدة يصور الأطفال بأنهم الأمل الذي سوف يمحي عار الهزيمة التي لحقت بالأمة العربية، كما صور "نزار" أيضا أطفال "انتفاضة الأقصى" عام 1987م في "ثلاثية أطفال الحجارة" قائلا:

بَهَرُوا الدُنْيَّا...

وَمَا فِي يَدِهِمْ إلاَّ الحِجَارَةْ...

وَأَضَّاءُوا كَالقَنَادِيلِ، وَجَاءُوا كَالبِشَارَةْ

قَاوَمُوا... وَانفَجَرُوا... واسْتَشْهَدُوا

وَبَقَينَا دِبَبًا قُطْبِيَةْ[2]

أما الشاعر "إبراهيم نصر الله" فإنه يصور العدوان الأمريكي على العراق في مطلع التسعينيات عبر رسم معاناة الأطفال وما لحق بهم من أذى وقتل، يقول:

أَنَا الطِّفْلُ

وَالزَّهْرُ لَمْ يَبْلَغْ الثَامِنَة

فَأَوْشَكْتُ أَن أَنْحَنِي لَتَمْرِ

وَكَانَ الرَّصَاصُ يُفَتِتُ صَدْرَ الهَوَاءِ وَيلقِيهِ للصَّخْرِ...

حِينَ رَأَيتُ انْفِجَارًا

صِغَارًا يَّطِيرُونَ صَوبَ النُّجُومِ... [3]

إن هذه القصيدة صورة حية لمعاناة الطفولة في العراق خاصة والوطن العربي عامة، ذلك أنها جسدت آثار الغزو الأمريكي لبلاد الرافدين والقصف العشوائي على عاصمة "هارون الرشيد" "بغداد".

وفي نفس السياق يتحدث الشاعر "أحمد شبلول" عن أطفال العراق في حرب الخليج الثانية عام 1991م وتبدو القصيدة خطابا للأطفال غير أن باطنها عكس ذلك، يقول الشاعر:

يا أَطْفَالِي ... يا أَطفَالَ عِرَاقٍ

قَدَرٌ ... أَن تَأتُوا فِي زَمَنِ الأَقْزَامِ الْمَفْضُوحِينَ

[1]. نزار قباني، الأعمال السياسة الكاملة، ط 02، منشورات نزار قباني، بيروت، لبنان، 1999م، ج 06، ص 496.

[2]. المصدر نفسه، ص 203.

[3]. إبراهيم نصر الله، الأعمال الشعرية، د.ط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1999م، ص 567.

أَنْ نُصبِحَ صِفْرًا فِي أَرْصِدَةِ المهزُومِينْ
أَنْ ضَاعَ التَّارِيخُ المحفُورُ عَلَى كُلِّ جَبِينْ
إِنْ نُسيَّتْ "يَرمُوكُ "، وَتَاهَتْ "حِطِينْ"
يَا أَطْفَالِي..
يَا أَطْفَالَ عِرَاق..
أَنْدَلُسٌ أُخْرَى فِي الأُفُقِ تَلُوحْ[1]

إن هذه القصيدة تحمل في طياتها صورة عن الأطفال غير مصرح بها -صورة ضمنية- فقد جعلهم الشاعر واعين بكل الأحداث التاريخية التي مرت بها الأمة العربية والإسلامية لذلك فهو يذكرهم بها.

إن الحديث عن صورة الطفل في الشعر العربي الحديث والمعاصر يقودنا للحديث عن صورة الطفل في الشعر الموجه إليه بذاته، وبطبيعة الحال فإن ظروف هذه المرحلة -الصراع العربي الإسرائيلي- فرضت أجواءها على الشعر الموجه للأطفال، فهم من صنع الحدث وهم محور الكتابة. وفي قصيدة للشاعر "سليم أحمد حسن" والتي عنوانها "رسالة الشهيد محمد الدرة إلى العالم" اختزلت قصة أطفال فلسطين ومعاناتهم، يقول "سليم أحمد حسن":

أنـَـا طِفـْلٌ فِلَسْطِيِنِي
وَهَذَا الفَخْرُ يَكْفِيــنِّ
وَأَمَّا اسْمِي، واسْمَ أَبِي
وَعَائِلَتِي .. فَهَذَا لَيَسَ يُغْنِينِي
وَأَرْفُضُ أَنْ أَكُــونَ الرَّمْزَ
أَوْ رَأْسَ العَنَاوِيـــنِ
فَمِثْلِي اسْتُشْهِدَ العَشَرَاتُ
وَآلاَفٌ مِنَ الجَرْحَــى[2]

أما الشاعر "محمد منذر لطفي" فيصور الأطفال منارة العرب وسبيل مسح الذل عن جبين الأمة العربية، يقول على لسان أطفال الحجارة:

---

1. أحمد فضل شبلول، ديوان الماء لنا والورد، د.ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 2001م، ص 42.

2. مجموعة شعراء، ديوان الشهيد محمد الدرة، ط 01، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود للإبداع الشعري، المملكة العربية السعودية، 2001م، ج 01، ص 135.

نَحنُ أَطْفَالُ الحِجَارَة .. نَحنُ للعُرْبِ مَنَارَهْ
قَدْ حَمَلْنَا رَايَةَ الثَّورَة .. أَطْلَقْنَا الشَّرَارَهْ
مَنْ رَآنَا نَرْجُمُ الغَاصبَ؟ وَالحَقُّ سِلاَحْ؟
(...)
قَدْ طَلَعْنَا مَنْ لَيَالِي الجُرْحِ .. نَشْدُو للصَبَاحْ[1]

إن هذه الأبيات تدل على تفهم هؤلاء الصغار لأبعاد القضية الفلسطينية وسبيل حل أزمة الشعب الفلسطيني والعربي.

أما "أحمد سويلم" فإنه يرسم معاناة أطفال العالم العربي والإسلامي، إذ يقدم صورة محزنة عنهم في قصيدة عنوانها "بكائية" يقول:

أَطْفَالُ هَذَا العَصْرِ مَسْفُوحُونَ
لَا يَخْرُونَ مَنْ آبَاؤُهُمْ
أَوْطَانُهُمْ
يَا ضَيْعَةَ الدِفْءِ المُجُرَحِ وَالوَلَدْ[2]

إن ما نلاحظه على صورة الطفل في الشعر العربي المعاصر هو ارتفاع الأطفال إلى حجم الأحداث والحروب والأزمات، إذ وردت صورهم ناصعة جلية محافظة على تراب الوطن والأمة. فجل الصور التي أوردناها تدل على وعي هذه الفئة بأوضاع الأمة، وعلى دورها في عملية التحرر من التبعية والاستعمار، وإن كان الأطفال هم الضحية والخاسر الأكبر في أي صراع.

ثانيا: الطفولة في القصة القصيرة والرواية

تحظى قصص الكبار والصغار على حد سواء بصور للأطفال، حيث يحتل الطفل موقعا مميزا وأحيانا رئيسيا في القصة القصيرة والرواية بما يصور موقف الطفل في أسرته، وتجربته في المجتمع.

أ- الطفولة في القصة:

اهتمت القصة منذ القديم بموضوع الطفل، ولكنه لم يستقل بعناوين تتناوله بصيغة مباشرة بل كان حضوره جزئيا ضمن موضوعات عامة، فهذا "الجاحظ" مثلا في "البخلاء" يقص قصة "مريم الصناع" على لسان شيخ:

[1]. محمد منذر لطفي، ديوان القمر يغني للأطفال، د.ط، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 1991م، ص ص 33، 34.
[2]. أحمد سويلم، ديوان صرخات تحت قبة الأقصى، د.ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، مصر، 2002م، ص 35.

«زوجت ابنتها، وهي بنت اثنتي عشرة سنة، فحلتها الذهب والفضة وكستها المروى والوشي والقزّ والخزّ وعلّقت المعصفر، ودقت الطيب، وعظمت أمرها في عين الختن، ورفعت من قدرها عند الأحماء، فقال لها زوجها: أنّى لك هذا يا مريم؟ قالت: هو من عند الله، قال: دعي عنك الجملة وهاتي التفسير، والله ما كنت ذات مال قديما ولا ورثته حديثا (...) قالت: اعلم أنّي منذ يوم ولدتها إلى أن زوجتها كنت أرفع من دقيق كلّ عجنة حفنة، وكنا كما قد علمت، نخبز في كل مرة فإذا اجتمع من ذلك مكّوك بعته»[1]

ومن القصص العربية الحديثة التي احتفت بتصوير الطفولة نجد المجموعة القصصية "نداء المستقبل" للكاتبة التونسية "فاطمة سليم" في قصة "الطفلة نادية" الصغيرة المرحة تحب «اللعب مع بنات الجيران في السقيفة أو في الزقاق تقفز بالحبل (...) تتخيل نفسها ربة دار (...) تحب المدرسة وأركانها الظليلة والمربعات الكبيرة تقفزها مع زميلة لها (...) تحب حصة الأناشيد والألحان الجميلة»[2]، ثم تكمل الكاتبة في سرد تفاصيل حياة "نادية"، وتنتهي قصة الصغيرة بأن تقرر مغادرة المدرسة للأبد بسبب اتهامها بسرقة نقود إحدى زميلاتها، ونتيجة قسوة المعلمة والمديرة في معاملتهما لها وعدم تبرئتها رغم عدم ثبوت إدانتها، قررت ترك المدرسة وعدم الرجوع إليها لأن الهمز واللمز كانا يلاحقانها أينما حلت.

كذلك نجد قصة "الصديقان" في المجموعة القصصية "حياة قاسية" لصاحبها اليمني "شاكر خصباك" التي تصور الطفلين "حسين وعدنان" إذ تربطهما صداقة قوية؛ فعدنان كان دائما يتبرع بعشائه لحسين، هذا الأخير الذي كان والده متسلطا غليظا، مما حتم على حسين العمل في السوق طوال اليوم بعد أن تركهم والدهم ورحل وبذلك ترك الابن اللعب مع عدنان ورفاقه، وفي نهاية القصة يعود الأب إلى أبنائه، بصورة مخالفة للأولى فقد وجد عملا وجاء بالمال الوفير، هنا يهتف حسين فرحا مسرورا «سنلعب غدا طول النهار يا عدنان»[3]،وتعكس هذه القصة مدى تأثير حالة الأب وسلوكه على أبنائه وأسرته، وكيف يكون الابن الضحية الأولى لهذه اللامبالاة.

وللقاصة السورية "اعتدال رافع" مجموعة قصصية بعنوان "رحيل البجع" تتعلق بالأطفال ومنها قصة خاصة تحكي قصة يتيم "وديع والكلب"، وديع يخاف الذهاب إلى المدرسة بسبب كلب كبير يقطع طريقه في كل مرة، لكن بفضل أمه استطاع مواجهة الكلب بالحجر «ومنذ تلك اللحظة عرف وديع أن خير وسيلة للدفاع عن

[1]. الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)، البخلاء، د.ط، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1980م، ص 49.

[2]. فاطمة سليم، نداء المستقبل-مجموعة قصصية، د.ط، دار بوسلامة للطباعة والنشر، تونس، 1978م، ص 89.

[3]. شاكر خصباك، حياة قاسية- مجموعة قصصية، ط 04، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، اليمن، 1996م، ص 48.

النفس هي الهجوم، تبدلت ملامحه واكتسب مظهرا جديدا لا يمت إلى القديم بصلة، رمى الحجر من يده وبصق وتابع طريقه إلى المدرسة»[1].

وفي القصة المصرية يتكرر نموذج الطفل كذلك، إذ يتطرق القاص "رجب البنا" في مجموعته "ابتسامة صغيرة" إلى عالم الطفل ومغامراته، فقصة "ليلة عيد" تصور الطفل المحروم الفقير، الذي يقف بين الناس منكمشا، لا مال له ولا أب، يراقب حركة السوق ليلة العيد، حيث يصطحب الآباء أبناءهم ويشترون لهم الملابس والهدايا أما هو فمحروم من ذلك، حينها تصدمه دراجة، فيبكي ويتجمع الناس حوله، ويشفقون عليه بتقديم المال[2].

أما بخصوص القصة الجزائرية فإن الطفل لا يرد دائما موضوعا رئيسيا للقصة، بل يكون حضوره أحيانا بوصفه شخصية مشاركة في الأحداث، ومن ذلك قصة "الدروب" من مجموعة "الطعنات" للكاتب "الطاهر وطار" فهي تحكي قصة طفل ثوري هو "الباهي" الذي «تحمل مسؤولية الأسرة في سن مبكرة، فقد كان هو الوحيد الذي يعول أمه وأختيه بعد أن توفي والده، لقد خلف والده في إعالة الأسرة»[3]

وكان القاص "أحمد رضا حوحو" قد أدرج من قبل في مجموعته "غادة أم القرى" قصة بعنوان "تلميذ"؛ تروي قصة تلميذ قروي اجتاز أطواره المدرسية بنجاح في ظروف اجتماعية قاسية، حيث كان أبواه وعائلته في فقر مدقع وفي حاجة ماسة إلى المساعدة، لذلك لم يسمح له أبواه بالذهاب إلى المدرسة إلا شرط مساعدة الوالد في أعماله بعد العودة من المدرسة، ورغم الظروف الصعبة ومعاناته في الدراسة فإنه نجح وتفوق في مسابقة الدخول للمدرسة الحربية، بالرغم من قلة وسائل التعليم وصعوبة ظروف المعيشة[4].

وللكاتبة "زهور ونيسي" في مجموعتها "على الشاطئ الآخر" قصة "لماذا تخاف أمي" تحكي قصة الطفل حمدي مع صديقه كمال أيام الثورة وسقوطه شهيدا في مظاهرات 1960م، وكان حمدي هو «الذكر الوحيد بين ثلاث بنات» [5]، لم يتجاوز العاشرة من عمره وهذا ما جعل أمه تخاف عليه وتمنعه من مرافقة زملائه إلى الشارع، غير أن المصير الذي كانت تخشاه الأم قد تحقق فقد استشهد "حمدي"حين رافق صديقه "كمال" إلى مظاهرات 1960م دون علم الأم.

---

[1]. اعتدال رافع، رحيل البجع- قصص عربية، ط 01، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، 1998م، ص 92.

[2] . رجب البنا، ابتسامة صغيرة، د.ط، مكتبة الأسرة، د.ب، 1997م.

[3]. الطاهر وطار، الدروب، الطعنات، ط 03، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص 56.

[4]. أحمد رضا حوحو، التلميذ، غادة أم القرى وقصص أخرى، ط 02، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2000م، ص 287.

[5]. زهور ونيسي، لماذا تخاف أمي، على الشاطئ الآخر، د.ط، موفم للنشر، الجزائر، 2007م، ص 150.

ومن القصص التي تصور واقع الطفل نجد قصة "يتم" للكاتب "عمار بلحسن" ضمن مجموعة "الأصوات"، تصور هذه القصة واقع طفل صغير اسمه "أعمر" توفي والده تاركا إياه وأمه يواجهان صعوبة الحياة وقساوتها، حيث وجدت الأم نفسها أمام طفل يتيم، وهي مسؤولة بل مجبرة على تربيته لكنها غير قادرة على ذلك لوحدها فكيف ستؤمن مستقبل فلذة كبدها؟ وكيف توفر لقمة العيش لنفسها ولولدها، ومن هنا تبدأ معاناة الأم وابنها[1].

وتخط ريشة الكاتب "محمد بن عجال" في قصته "ويكبر الصغار في وطني" صورة الطفل "سعيد" المجاهد الصغير الذي نجح بإرادته وعزيمته في فعل ما عجز عنه الكبار، إذ استطاع أن يقوم بمهمة جهادية عجز الكبار عن فعلها وهي قتل قائد فرنسي كان رفقة أصدقائه أثناء سهرهم في إحدى الليالي بالحديقة، فيهنئه قائد المجاهدين على ذلك ويثبت حضوره في ساحة القتال رغم صغر سنه[2].

ويحيلنا عنوان قصة "الطفل المجاهد" لـ: "أحمد الطيب معاش" مباشرة إلى الصورة المدروسة أي صورة الطفل المجاهد، فبطل القصة –الجهاد– طفل صغير دون المراهقة يسكن مع والديه وجديه، وإخوانه، وأخواته التسعة في كوخ. وكان (الجهاد) أذكى أخوته وأكثرهم نشاطا حيث كان يوصل المؤونة للمجاهدين، فاعتقله الجنود الفرنسيون «وعندما وقف الطفل (الجهاد) وجها لوجه أمام الضابط الكبير قائد المركز، بادره هذا بقوله: إنك يا الجهاد متهم بالجهاد فيجيبه الطفل الرجل: والله يا (سي الحاكم) إني لم أقم إلا بأقل القليل فقد أوصلت عدة مراة* الماء و الحليب والطعام إلى القمة لبعض الضيوف.. وزعت مرتين أو ثلاث ألغاما صغيرة في طريق العسكر.. هذا كل شيء ياسي الحاكم ثم إني لم أقصد قتل العسكر لأني لا أحب القتل وإنما أردت فقط تخويفهم فهم بالفعل لم يموتوا بألغامي الصغيرة ولكن من (الفجعة)»[(3)].

ومما سبق دراسته بخصوص صورة الطفل في القصة الجزائرية، يتجلى واضحا ما تعرض له الطفل الجزائري من ظروف معيشية قاسية، أرغمته على العمل وهو لم يقو بعد على ذلك. و تحمل قسوة العدو وشتى أنواع التعذيب والعذاب من أجل توفير لقمة العيش الشيء الذي غرس في نفسه النقمة لتصبح الطفولة رمزا للنضال والدافع الأساسي للتحدي.

---

[1]. عمار بلحسن، يتم، الأصوات، د.ط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م، ص 149.

[2]. محمد بن عجال، ويكبر الصغار في وطني، يوميات رجل نبيل، ط 01، مطابع عمار قرفي، الجزائر، 1992م، ص 36.

* الصواب: مرات.

[(3)] أحمد طيب معاش، شموع لا تريد الانطفاء، د.ط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990م، ص 29.

ومن النماذج القصصية العالمية التي اتسعت مساحاتها للطفل نذكر على سبيل التمثيل لا الحصر: "الحديقة السرية " لـ: "فرانسيس هودغس بيرنت" وهي مجموعة قصصية يبلغ عددها سبعا وعشرين قصة، تحكي كلها مغامرات طفلة صغيرة نحيلة وبشعة تدعى "ماري لينوكس"، التي فقدت أبويها فاحتضنها خالها وكانت الطفلة مشاكسة جدا حيث كانت تقوم بمغامرات شقية في بيت خالها[1].

كما نلحظ حضور الطفل في قصة "في منزل الأرملة"، هي مجموعة قصص لـ: "أنطوان تشيكوف"، من خلال قصة "الطفل المساكش"، وأحداثها تتعلق بالطفل "كوليا" تلميذ في المدرسة الثانوية طلب نقودا من خطيب أخته مقابل عدم إخبار أمه برؤيتهما يتصرفان تصرفا غير مقبول، فأصبحا منذ ذلك يقدمان له الكثير من الهدايا والمال مقابل سكوته، مما أعجبه فجعل يواصل التجسس عليهما أينما كانا، لينال منهما الكثير[2].

إن الحديث عن صورة الطفل في فن القصة يسوقنا للحديث عن صورة الطفل في القصة المكتوبة للطفل –صورة الطفل في قصص الأطفال أي أدب الأطفال– وقد كان للغرب السبق في مخاطبة الأطفال، ذلك أن الاهتمام بالأطفال في الأدب بالساحة العربية لم يكن واردا بصورته إلا بعد النكبة الفلسطينية، ولعل أهم النماذج لصورة الطفل في القصة الغربية والعالمية الموجهة للأطفال هي قصة "سندريلا"، وهي قصة شائعة ومشهورة في بقاع كثيرة من العالم، "فسندريلا" فتاة يتيمة تتفوق على أختيها غير الشقيقات بما تملكه من صفات ومزايا، أما أختاها فتتفوقان عليها بما تملكانه من مال وجاه، "سندريلا" فتاة مضطهدة ومقهورة أسريا، تقوم بالأعمال المنزلية في البيت وحدها دون أن تتلقى حسن المعاملة من زوجة أبيها، و يمكن أن نميز بين صورتين متقابلتين متضادتين صورة "سندريلا" البائسة المضطهدة، وصورة الأختين القاسيتين:

	سندريلا (الخير)	الأختان (الشر)
الصفات الداخلية	– رقة وطيبة – حب الآخرين	– قسوة وشراسة – كره الآخرين
الأعمال	– القيام بكل أعمال المنزل: طبخ، غسل، إصلاح الثياب ...	– لا تؤديان أي عمل منزلي – تتزينان وتأمران
الصفات الخارجية	ثياب ممزقة – حذاء خشبي	– ثياب جميلة – نظافة وأناقة

[1]. فرانسيس هودغس بيرنث، الحديقة السرية، د.ط، تر: نعمت توفيق صناديقي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق،سوريا، 1999م.

[2]. أنطوان تشيكوف، في منزل الأرملة–قصص، تر: أبو العيد دودو، ط 01، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2003م.

+نمط العيش	– تنام قرب الموقد – قذرة الثياب	– حفلات ورفاهية
العلاقة	– الطرف المغلوب – مأمورة ومجبرة – خادمة	– الطرف الغالب – إصدار الأوامر – سيدتان

غير أن نمط حياة "سندريلا" سوف يتغير وتقلب كافة الموازين بينها وبين أختيها «ونمط حياة كل منهن ستسويه وتضبطه قوة غير بشرية فتنقذ سندريلا في الوقت المناسب وتؤمن لها صعودا سهلا "هنيا" لا صعاب فيه ولا عراقيل، صعودا ينقلها من أسفل السلم الاجتماعي إلى أعلاه حين تصبح زوجة الأمير»[1].

ونمر إلى صورة الطفلة الفقيرة في قصة "بائعة الكبريت" حيث تصف بؤس ومعاناة فتاة فقيرة، تكد من أجل توفير قوت عائلتها، ففي إحدى الليالي الباردة والثلج يتساقط «كانت هناك فتاة صغيرة تجوب الشوارع عارية الرأس حافية القدمين كانت الطفلة تبيع الكبريت وتنادي "كبريت، كبريت" ولسوء حظها لم يشتر منها أحد» [2]إنها لن تستطيع العودة إلى المنزل فوالدها سوف يعنفها إن هي رجعت خالية الوفاض، وبينما هي تجوب الشوارع انطفأت كل الأنوار ولم يبق سوى الفتاة مستلقية على الأرض قد ماتت من البرد، و لما جاء الصباح صار الناس يمرون أمام جثة الطفلة وهم يتأسفون ويقولون: «يا لها من فتاة مسكينة، كانت تبحث عن قليل من الدفء»[3].

أما فيما يخص قصص الأطفال العربية فنجد قصة "الحلم والمستقبل" للقاصة "لينا الكيلاني"، وتروي قصة أخوين صغيرين "عامر وماهر" يحب أحدهما الآخر حبا كبيرا، وهما مثل صديقين حميمين متفاهمين، متفوقان في المدرسة، هواية عامر أن يتطلع إلى السماء ويتعرف على النجوم وأسمائها... ويحلم أن يكون في المستقبل رائد فضاء، بينما يبحث ماهر في الأرض وينقب عن حجر فضي مشع سمع عنه، وأمله أن يصبح في المستقبل عالما من العلماء. وقد لقيا تشجيعا من أبويهما فزاد تعلقهما أكثر بهوايتهما، وذات يوم حلما أنهما حققها مرادهما فسألا أباهما إن كان حلمهما سيتحقق، ولأن الأب يعي تعلق ابنيه بهوايتهما أجاب بالإيجاب، وبأنه إذا سعى أحدهما

[1]. ذكاء الحر، الطفل العربي وثقافة المجتمع–عينات من قصص الأطفال، ط 01، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1984م، ص 58.

[2]. بائعة الكبريت، د.ط، دار البدر للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، د.ت، ص 01.

[3]. المصدر نفسه، ص 07.

وراء حلمه فلابد أن يتحقق ولكن ببذل المجهود، مع الاستمرارية في ذلك ولو تراءى الفشل للوهلة الأولى[1].

لقد طغت قصة الطفل الفلسطيني على الفن القصصي للأطفال في القصة الحديثة والمعاصرة على حد سواء. فقصة "رنا البردانة" تتناول جوانب من جهاد أطفال فلسطين ردا على ما يعانونه من خوف وترهيب، حيث نجد صورة الطفلة الفلسطينية المجاهدة والجريئة التي ملأت معطفها بالحجارة الصغيرة، واجتازت حاجز الجنود المحتلين بحجة المرض بالحمى، وقد ارتدت معطفا في عز الصيف. فانطلت عليهم حيلة الطفلة الصغيرة، وحين وصلت إلى السور بدأت تقذف حجارتها على الجنود حجرا فحجرا ثم تختبئ إلى أن أمسكها أحد الجنود، لكنها سرعان ما تخلصت منه، انحنت الى الأرض وتظاهرت بأنها تجمع معطفها، ولما انحنى الجندي ليبعدها عنه رمت المعطف فوق رأسه، واختفت بين البيوت قرب السور، وعندما راح ذلك الجندي يسأل زملاءه إن رأوا بنتا صغيرة ترتدي معطفا شتويا، طويلا وسميكا، سخروا منه متسائلين: هل هناك من يرتدي معطفا في عز الصيف؟[2].

وتتكرر صورة الطفلة المجاهدة في قصة "زهرة الثلج" للكاتبة "لينا الكيلاني" لكن الجهاد هنا ليس بالسلاح (الحجر) بل هو جهاد القلم، برسالة كتبتها الطفلة "رباب" نيابة عن أسرتها دون علمها، تطلب فيها تحرير "الجولان" من احتلال الإسرائيلين، وقد أخذتها إلى البريد وخاطرت بحياتها أمام دوي القنابل وأزيز طائرات العدو، لكن قريبها "رافع" طلب منها تمزيقها لأن رسائلهم لا تصل إلى "دمشق"، ولا إلى سواها من المدن لكنها رفضت ذلك بشدة مبدية حبها لوطنها وإيمانها بتحريره، فما كان منها إلا أن حفرت حفرة صغيرة وسط الثلوج، وضعت فيها الرسالة وغطتها، وهي تبكي، آملة في أن يقطفها أحدهم بعد ذوبان الثلوج[3].

أما فيما يخص صورة الطفل في قصص الأطفال في الجزائر فنذكر صورة الطفل في قصة "الطفل الذكي" لـ: "رابح خدوسي"، تحكي قصة صغير اسمه "رؤوف" في الثامنة من عمره، يحب اللعب وهو كثير الحركة وفي أحد أيام رمضان قرر "رؤوف" الصوم، فأمسك عن الأكل والشراب طوال اليوم، وعندما قدمت له أمه فطور الصباح، امتنع عنه وأخبرها أنه صائم، ورغم محاولاتها المستمرة في إقناعه بعدم الصوم لأنه مازال صغيرا، فإنه ظل مصمما على رأيه ثم ذهب إلى المدرسة وفي ساحتها كان يفتخر أمام زملائه بصومه وشجاعته. وبعد عودته من المدرسة كان يشد جوعه وعطشه أكثر من ذي قبل وبدا الإرهاق عليه، بعدها لجأت الأم إلى حيلة جديدة، حينما فشلت في إقناعه بالإقلاع عن الصوم حيث أغلقت النوافذ حتى صار الضوء في الغرفة خافتا كأنه وقت الغروب، ثم جاءت

[1]. لينا الكيلاني، الحلم والمستقبل- قصص للأطفال، د.ط، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 1997م.

[2].المصدر نفسه .

[3]. المصدر نفسه.

بالمذياع وأسمعته أذان المؤذن لصلاة الظهر، اعتقد "رؤوف" أن وقت الغروب قد حان فأخذ يأكل ويشرب بشراهة[1].

وللكاتب "عبد العزيز بوشفيرات" قصة "البطل الصغير"، موضوعها عن الطفل المجاهد "علي" الذي جاءت به امرأة تدعى "فاطمة بنت الطاهر" قبل ثورة التحرير من إحدى القرى الجبلية النائية، لما كانت في زيارة لأختها، وكان "علي" فقيرا، فوالداه لا يملكان شيئا مما دفع أمه إلى تسليمه لفاطمة التي أحسنت تربيته، فكان يساعدها في رعي الأبقار وباقي الأعمال. وتقوم ثورة التحرير فيفكر "علي" في هذه الحرب، ويتمنى أن يكون جنديا في الثورة وفعلا يقرر وبشجاعة أن يكون جنديا صغيرا، حيث التحق بصفوف المجاهدين وأنجز بطولات شجاعة حفظها له التاريخ[2].

وتتكرر صورة الطفل المجاهد الثوري في سلسلة "مغامرات هشام" لـ: "مولود مسخر"، وقد صدرت عن سلسلة "مغامرات هشام" قصص كثيرة منها: "مغامرات هشام" و"صعلكة الفتيان"، "عمر بودينار"، "الحجاج بوالدجاج"... وترسم هذه القصص مغامرات هؤلاء الفتيان، وقد عاشوا كلهم اليتم والفقر وامتلأت طفولتهم بالأحزان والحرمان، حرمهم المستعمر كل شيء وحين قامت الثورة التحريرية التحق هؤلاء بصفوفها فكانوا جنودا أقوياء وأبطالا بواسل[3].

وتبتعد قصة "بقرة اليتامى" للكاتب "رابح خدوسي" عن تصوير واقع أطفال الثورة إلى رسم واقع اليتامى، وتنقل هذه القصة أحداث حياة طفلين يتيمين "ظريف ومرجانة "، حيث حكم عليهما القدر بعد وفاة أمهما أن يعيشا الوحدة والأحزان مع زوجة الأب هذه المرأة القاسية القلب، والتي كانت تخفي وراء جمالها الأخاذ قلبا أسودا ورّثته لابنتها "عسلوجة" حيث امتلأ قلبها الصغير بغضا وحسدا على أخويها، إذ كانت تعاملهما بقسوة مقلدة بذلك أمها المتسلطة[4]، فقد صورت هذه القصة حالة الفقدان والحرمان المادي والعاطفي الذي يعيشه اليتامى عموما.

قصص الأطفال تصور الطفل في صور عدة بعضها بطولي وبعضها غير ذلك، ومن خلال ما سبق ذكره يتضح للعيان تنوع ألوان صور الطفل في قصص الكبار وقصص الطفل على حد سواء وتشمل (الطفل اليتيم، الطفل الفقير، الطفل المتهور المشاكس، الطفل المجاهد والشهيد...).

---

[1]. رابح خدوسي، الطفل الذكي، د.ط، دار الحضارة، الجزائر، د.ت.

[2]. عبد العزيز بوسفيرات، البطل الصغير، د.ط، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر، 1996م.

[3]. مولود مسخر، مغامرات هشام، د.ط، الملكية للإعلام والنشر والتوزيع، الجزائر، 1992م.

[4]. رابح خدوسي، بقرة اليتامى وقصص أخرى، د.ط، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2001م.

ب- الطفل في الرواية:

يشكل الطفل موضوعا أساسيا في النص الروائي، خاصة روايات السيرة الذاتية التي تتخذ من ذكريات الطفولة المنطلق الأساسي في البناء الروائي.

ومن نماذج السيرة الذاتية الراسخة في الأدب الروائي العالمي، والتي عالجت موضوع الطفل: «روايتا "تشارلز ديكنز": "أولفر تويست" و"دومي وولده"، ورواية "مونفليت" لـ"ميد فوكنر"، ورواية "أطفال الغابة الجديدة" لكابتن "فردريك ماريات"، وروايات أخرى »[1] وتحكي رواية "أولفر تويست" عن طفل صغير غير شرعي، تموت أمه بعد ولادته مباشرة، ليلتحق بالملجأ، المكان الذي يعاني فيه الأطفال معاناة قاسية، وجوعا مدقعا، ويختاره الأطفال -أطفال الملجأ- للمطالبة بزيادة كمية الطعام المقدم إليهم، فكان الرد بحبسه في غرفة معزولة لتتواصل حكاية الطفل الصغير المأساوية مع اللصوص الذين صادفهم في الشارع وأصبح واحدا منهم»[2].

وتتجلى التجربة الشخصية في الطفولة بشكل مباشر في رواية "طفولتي" لـ: "مكسيم غوركي" حيث تصبح الرواية رصدا لطفولة المؤلف، وتسجيلا لمرحلة مهمة من مراحل حياته، ويتكرر الطفل اليتيم أيضا في هذه الرواية إذ يموت الأب لينتقل الطفل "بشكوف" مع أمه إلى بيت جدته، حينها تبدأ المأساة، فيقرر الجد بعد وفاة أم "بشكوف" أن يدفع به إلى العالم ليتدبر شؤون مأكله ومشربه[3].

أما فيما يخص حضور الطفل في الرواية العربية فإننا نذكر على سبيل المثال لا الحصر رواية "الأيام" لـ: "طه حسين" وبالتحديد الجزء الأول الذي يحكي ذكريات الصبي الأديب "طه حسين" وما عاناه ولاحظه من فروق بينه وبين إخوته نتيجة لفقدانه الحبيبتين (عيناه)، هذا الطفل القروي الذي أسهمت في تشكيل فكره ووجدانه عناصر عدة، هي خليط من الخرافة والجهل والأسطورة والخيال الشعبي، ليضفي كل ذلك على صورة الطفل ظلالا رقيقة من الخيال والخوف من الظلام، ظلام العقل، وظلام العين [4]. ويصور "طه حسين" علاقته لما كان طفلا بمن حوله من الأسرة والمجتمع، وكيف كان يعامل كونه أعمى «أحس أن أمه تأذن لإخوته وأخواته في أشياء تحظرها عليه، وكان ذلك يحفظه ولكن لم تلبث هذه الحفيظة أن استحالت إلى حزن عميق، ذلك أنه سمع إخوته يصفون ما لا علم له به فعلم أنهم يرون ما لا يرى»[5].

---

[1]. منير فوزي، صورة الطفل في الرواية المصرية، ط 01، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، 1997م، ص 19.

[2]. المرجع نفسه، ص 20.

[3]. المرجع نفسه، ص 31.

[4]. طه حسين، الأيام، د.ط، دار الهدى للنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، د.ت، ج 01.

[5]. المصدر نفسه، ج 01، ص 16.

ومن روايات السيرة الذاتية أيضا رواية "نجيب محفوظ" التي عنوانها "حكايات حارتنا"، وهي مجموعة من الحكايات عن طفولة الكاتب، حيث يتقمص الراوي "نجيب محفوظ" مرحلة الطفولة ويطرح قضايا دينية، واجتماعية، وإنسانية عامة هي: المرأة والجنس، الدين والسياسة، الموت والحياة، وحتى يبقى محايدا في طرحه فإنه قدمها من خلال عيني طفل[1]

وتتجسد صورة الطفل الشقي في رواية "مغامرات الطفل المتمرد" لـ: "أحمد سفطى"، وهي تنقل أحداث حياة الطفل الشقي المتمرد على تقاليد المجتمع والذي يهوى المغامرة كثيرا، «دعاني يوما أحد أصدقائي من المدرسة القرآنية أن نفر من الجامع والتغيب عن الدرس، فشق علي الأمر، ولكن رغبة المغامرة تغلبت علي ورافقته مع أخيه إلى الغابة (...) فسلكنا الطريق وتسلقنا إلى الكدية ثم إلى الأماكن الوعرة، ولعبنا مثل القردة على الأغصان والألياف ثم قطفنا الأزهار البرهوشة مثل الأقحوان والبنفسج»[2].

وبالنسبة للرواية الجزائرية الحديثة فإن موضوع الطفل أو الطفولة له مكانة خاصة، وقد تناول الروائيون الجزائريون الطفولة في مظهرين:

– المظهر الأول هو تخصيص روايات كاملة تحمل عناوين ترتبط بالطفولة مباشرة مثل رواية "أطفال العالم الجديد" لـ: "آسيا جبار "، والمفارقة في هذه الرواية هي أنها لم تركز فيها على الأطفال، بل على العنصر النسوي، وتجري أحداث هذه الرواية في مدينة صغيرة قرب العاصمة، يعيش الناس الحرب فيها يوما بعد يوم فالرجال يقاومون وينضمون إلى الثورة، بينما النساء والشيوخ والأطفال في صراع دائم من أجل البقاء، فهم ينتقلون من مكان إلى مكان هروبا من انتقام الاحتلال منهم بسبب فشله في مواجهة المجاهدين، غير أن هناك أسماء نسائية تتحدى وتشارك جنبا إلى جنب في الثورة مع الرجل.

– والمظهر الثاني يكون البطل الرئيسي فيه طفلا كما في ثلاثية "محمد ديب" "الدار الكبيرة، الحريق، النول" التي نُسجت أحداثها عن الصبي "عمر" الذي عايش مأساة الثورة ومعاناتها، وهنا تبدو «اليقظة النفسية والعقلية والعاطفية البطيئة للبطل عمر ترمز إلى ميلاد ضمير جزائري متلهف إلى الاعتراف به مصرا على الحصول على الاعتراف مهما كانت الوسائل»[3].

[1]. نجيب محفوظ، المؤلفات الكاملة؛ حكايات حارتنا، ط 01، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، 1993م، مج 04.

[2]. أحمد سفطى، مغامرات الطفل المتمرد، د.ط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م، ص 60.

[3]. أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ط 05، دار رائد للكتاب، الجزائر، 2007م، ص 98.

أما رواية "طيور في الظهيرة" للروائي "مرزاق بقطاش" فترصد يوميات الطفل "مراد" مع أقرانه من الأطفال في المدرسة، وفي الحي الذي يقطنه أيام الثورة التحريرية، إذ يقرر التلاميذ مقاطعة حصص اللغة الفرنسية والاكتفاء بحضور حصص اللغة العربية، تضامنا مع المجاهدين والثورة وهذا يعكس مدى تأثير الثورة على عالم الأطفال [1].

كذلك يذهب "مولود فرعون" في رواية "نجل الفقير" إلى تصوير فتى جزائري من منطقة القبائل –تلميذ– يقول ويصرخ ها أنا أتعلم في المدارس الفرنسية وأنال أكبر الشهادات، رغم الفقر والتمييز العنصري والعوائق المتعددة التي تحول دون تعلم أطفال الجزائر في فترة الاستعمار، فقد صور "مولود فرعون" الطفل الجزائري الناجح بخلاف الصورة التي يحبذها المستعمر، وهي صورة الطفل الحمال في السوق، أو ماسح أحذية المعمرين [2]، وتعد هذه الرواية إلى حد بعيد سيرة ذاتية تصف طفولة الكاتب ومراهقته.

أما "رشيد بوجدرة" في رواية "الحلزون العنيد" فإنه يصف ظاهرة الخدم وأثرها على الأطفال، وهذه قضية اجتماعية بامتياز لها نتائج عكسية على عالم الطفولة[3]، وتبدو هذه الرواية استحضارا لذاكرة الكاتب الطفولية.

إن الرواية التي أدرجت صورة الطفل العربي في العصر الحديث تكاد تكون كلها من فن "السيرة الذاتية ". و إن لم تكن كذلك فإن الكاتب قد استحضر ذاكرته الطفولية أثناء الكتابة، لذلك تنمّ كل الروايات تقريبا عن التجربة الشخصية وإن كان معظم الروائيين يرفضون ذلك الإسقاط.

إن معظم الأدب العربي –الشعر أو النثر– في العصر الحديث، والذي تحدث باسم الطفولة، جاء بعد النكبة عام 1948م. وعلى العموم فإن الاهتمام بالطفل في الأدب يزداد بعد الأزمات الأمنية والحروب، لما لها من تأثير كبير على الطفل من ناحية التكوين النفسي، والتنشئة الاجتماعية. وقد لاحظنا أن الأدباء الذين صوروا الطفل قد فعلوا ذلك لإيصال معاناة هذه الفئة الضعيفة، أو اتخذوا الطفولة وسيلة لإيصال رسائلهم، فهي قناع يفلتون به من الرقابة، كما يعد طرق موضوع الطفولة هروبا من الواقع المرير الذي يحياه أهل الإبداع إلى عالم الأطفال البريء.

إن استقصاء صورة الطفل في الأدب ساقنا للحديث عن أدب الكبار والصغار كما هما معرّفان في بطون الكتب، وهنا تطرح إشكالية أخرى عن أدب الأطفال: فهل هو الأدب الذي يكتب للأطفال فحسب؟ أم يتعداه إلى الأدب الذي يتناول ويطرح موضوع الطفولة؟.

---

[1]. مرزاق بقطاش، طيور في الظهيرة، د.ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.

[2]. مولود فرعون، نجل الفقير، تر: محمد عجينة، ط 04، دار سراس للنشر، تونس، د.ت.

[3]. رشيد بوجدرة، الحلزون العنيد، تر: هشام القروي، ط 02، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر، الجزائر، 2002م.

إن الأعمال الأدبية التي جعلت الطفل محورها الفني لم يدرجها النقاد في إطار أدب الأطفال، غير أن هناك من الفن القصصي والروائي العالمي والعربي، ما يفند هذا الطرح، فقصة "الحديقة السرية" لـ: " فرانسيس هودغس بيرنت" ورغم أنها موجهة للكبار، فإنها لاقت رواجا عند الأطفال بعد ترجمتها إلى عمل كارتوني أي إلى رسوم متحركة، وكذلك رواية "البؤساء" لـ: "فيكتور هيجو "، وعلى نفس الخط سارت رواية "الدار الكبيرة" بعد تحويلها إلى عمل درامي "مسلسل تلفزيوني". وإلى هنا تبقى إشكالية حدود أدب الأطفال مطروحة إلى غاية دراستها والفصل فيها.

ثالثا: الطفل والرمز في الأدب

تدل كلمة "الرمز" (Symbol) في قاموس (Oxford) على: «علامة أو أثر أو إشارة أو شخص ما، أو متعين أو مدرك بشكل عام، وهي قد تشير إلى النموذج كما هو مبين في المثال التالي، حيث إنه في الرمز الحسابي تصبح علامة (×) رمزا لعملية الضرب الحسابي، وعلامة (÷) رمزا للقسمة، وعلامة (+) رمزا للجمع وعلامة (–) رمزا للطرح...، أما في إطار الرمز اللغوي فإنه يمكن اتخاذ اللون الأبيض رمزا للنقاء والطهارة، مثلما يعد الصليب رمزا للمسيحية»[1].

ونفس المعنى تقريبا يورده "معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب" حيث يدل الرمز على «الكائن الحي أو الشيء المحسوس الذي جرى العرف على عدّه رمز المعنى المجرد كالحمامة أو غصن الزيتون رمزا السلام»[2].

ودخل الرمز حقل الأدب تماما مثلما دخل سائر مجالات العلوم الإنسانية، حتى اقترن هذا المصطلح – الرمز– بتيار أو حركة أدبية هي "الرمزية"، حيث دعي أنصار الرمزية إلى عد العالم مجموعة من الرموز «ولعل من اللافت للنظر أن ارتباط الرمز (Symbol) بالأجناس الأدبية، كان متحققا أكثر ما يكون في الشعر، فالحركة الرمزية كانت –أساسا– حركة شعرية (...) إلا أن هذا لا يعني أن الرمز قد أصبح موقوفا على فن الشعر وحده، وإنما امتد ليفرش ظلاله على سائر الأجناس الأدبية الأخرى بصورة متفاوتة»[3].

ومن أكثر الأجناس الأدبية التي دخل حقلها الرمز فن الرواية وفن القصة، ويعد رمز الطفل أحد زوايا صورة الطفل التي تشكل ملمحا فنيا في الإبداع الروائي وهذا هو محور الدراسة.

---

[1] .Oxford advanced learners, dictionary of current english, oxford university,1977, symbol .
نقلا عن منير فوزي، صورة الطفل في الرواية المصرية، ص189 .

[2]. مجدي وهبة وكمال مهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ط 02، مكتبة لبنان، بيروت، 1984م، ص 130.

[3]. منير فوزي، صورة الطفل في الرواية المصرية، ص 191.

إن توظيف رمز الطفل في العمل الروائي يمثل مرتكزا محوريا يتحكم في بناء الشخصيات، وتطور الأحداث، وينعكس هذا الرمز في أحيان عدة على لغة الرواية [1]. وقد عكف الروائيون العرب والجزائريون على توظيف الطفل "رمزا سياسيا "، حيث جعلوه رمزا للثورة المنتظرة، ورمزا لنقد السلطة تارة أخرى، كما وظفوه رمزا للوطن المحتل، وللقوة والضعف معا، وكذا رمزا للخلاص (خلاص الوطن) ولمستقبل أفضل... هذا علاوة على أن الرمز الذي تعرف به الطفولة هو رمز البراءة والنقاء.

فلو أخذنا الرواية المصرية "حكايات حارتنا" فإنها تشتمل على أكثر من مستوى لرمز الطفل: المستوى الأول تمثل فيه الطفولة العالم الجميل الذي تخلق في الزمن الماضي –رمز البراءة– وذلك لمواجهة "الشيخوخة" التي ترمز إلى العالم القبيح، كما ترمز الطفولة إلى الضعف والقوة في آن واحد في هذه الرواية، فالطفل قد يكون ضعيفا من الناحية البدنية لكنه من الممكن أن يكون فاعلا ومؤثرا أكثر ممن هم أقوى منه. ويتجسد ذلك في الحكاية رقم "خمسون" من الرواية والتي تحكي تغلب غلام صغير على "جعلص الدنانيري"، هذا الفتى المتغطرس. وهكذا تصبح الطفولة الهشة فاعلة ومؤثرة وتغدو رمزا للقوة والقدرة على تحقيق الأفعال الصعبة. أما في الحكاية رقم "اثنين وعشرون" من الرواية نفسها نجد صورة الطفل الذي يقف وراء النافذة، متطلعا إلى الناس بشوق ولهفة، يرمز إلى الرغبة في المعرفة والاطّلاع، كما يرمز أيضا لمرحلة العبور إلى المستقبل أي تخطي واقع الهزيمة التي لحقت بالعرب عام 1967م[2]

أما فيما يخص الرواية الجزائرية الحديثة ، فإنها كذلك تزخر بجملة من الرموز، التي تحيلنا إلى الطفولة؛ "فثلاثية محمد ديب" تحمل رموزا عدة للطفولة، منها: رمز النقاء والبراءة، يتجلى ذلك في مساعدة الطفل "عمر" لصاحب القميص الكاكي، فعمر يؤثر على نفسه "صاحب القميص الكاكي " في قطعة الخبز رغم أن به خصاصة، فهذا دليل على النقاء وصفاء القلب والسريرة وهذه ميزة الأطفال. إن "عمر" في الثلاثية هو رمز كذلك للضعف والقوة معا، فهو يخاف الشرطة وأمه ويخاف الحرب والمجهول ويخاف الظلام، لكنه رمز القوة لأنه يسيطر على أقرانه في المدرسة فالكل يهابه ويعطيه من الخبز نصيبا، لحمايتهم من باقي الأطفال الأكبر منهم سنا، فسلطة عمر إذن تمتد من أترابه الذين هم في سنه إلى من يكبرون سنا. إن "عمر" رمز لضياع الوطن فحيرته هي حيرة الشعب الجزائري، وضياعه هو ضياع الوطن من بين يدي الشعب، وهو كذلك رمز للخلاص ويتجلى ذلك في

[1]. منير فوزي، صورة الطفل في الرواية المصرية، ص191.
[2]. المرجع نفسه، ص ص 192، 197، 202.

بحث "عمر" عن الحل لخلاص الشعب الجزائري من الاستعمار والأوضاع التي خلفها. و"عمر" أيضا هو رمز سياسي لأنه يرمز للثورة، ذلك أنه يحمل في ذاته حسا ثوريا متمردا على الأوضاع التي فرضها الاستعمار.

أما في رواية "طيور في الظهيرة " لـ: "مرزاق بقطاش"، فإن الطفل "مراد" وأقرانه يرمزون للمعرفة والوعي وهم أيضا رمز للخلاص أي خلاص الوطن، يتجلى ذلك في تمردهم على التعليم الفرنسي، وهم كذلك رمز للثورة.

وأما رواية "نجل الفقير" لـ: "مولود فرعون" فإن الطفل "فورلو" هو رمز للمعرفة وذلك يتجسد في تحديه للظروف القاهرة التي يحياها وتعلمه رغم الصعاب. كما يعد رمزا للانطلاقة والمستقبل فـ: "فورلو" قد رسم معلم حياته وقرر مستقبله بتعلمه وتحديه. والملاحظ في هذه الروايات الأخيرة أنها تأتي على ذكر الطفولة بوصفها رمزا لاستمرار الحياة مهما كانت قاسية فهي رمز التغلب على هذه القسوة.

لقد استطاع الروائي العربي والجزائري بتوظيفه لرمز الطفل توجيه رسائل احتجاج سياسية واجتماعية. إذ عمل على فضح السلطات المفروضة على الأدب وتجاوزها، والملفت للانتباه هو توظيف الطفل رمزا ذاتيا، تجلى ذلك في فن الرواية الذاتية التي تحكي معاناة وتطلعات الأديب الشخصية

الفصل الثاني: صورة الطفل الجزائري في ثلاثية محمد ديب

(الدار الكبيرة، الحريق، النول)

المبحث الأول:ترجمة المؤلف

المبحث الثاني:صورة الطفل في رواية الدار الكبيرة (أطفال المدينة)

المبحث الثالث:صورة الطفل في رواية الحريق (أطفال الريف)

المبحث الرابع: صورة في رواية النول (الحياة العملية لعمر)

الفصل الثاني:

صورة الطفل الجزائري في ثلاثية محمد ديب (الدار الكبيرة، الحريق، النول):

شهدت خمسينيات هذا القرن ظهور ثلاثيتين هامتين تعدان بحق حدثا بارزا في تاريخ الرواية العربية، أولهما ثلاثية "نجيب محفوظ" (بين القصرين، الشرق، السكرية). والثانية هي ثلاثية الجزائر لمحمد ديب، هذه الأخيرة تعد فاتحة قريحة "ديب" الإبداعية، فهي أول مشاريعه الأدبية وبها افتتح مشواره الأدبي.

تتألف هذه الرواية من ثلاثة أجزاء "الدار الكبيرة" و"الحريق" و"النول"، صدرت أولها عام 1952م والثانية عام 1954م والثالثة عام 1957م، وتدور أحداثها السردية في مدينة "تلمسان" التي تقع غرب الجزائر «تنقل هذه الرواية واقع الجزائر أيام الاحتلال الفرنسي وهو واقع يبدو لفظاعة المأساة فيه وبؤس حياة البشر، لا معقولا يصعب أن يصدقه المتلقي البعيد عنه» [1]. فقد عرضت الثلاثية لوحة متكاملة وشاملة للمجتمع الجزائري في فترة الحرب العالمية الثانية، كما تنبأت بقيام الثورة التحريرية، كان هذا الرصد لأحداث الجزائر عبر إحدى الأسر الجزائرية التي هي نموذج للطبقة المحرومة من حقوقها، أو قل عبر الطفل "عمر" الذي يرمز للحيرة والضياع وكذا القوة والضعف معا، فأصدق مثال لتوصيل رسالة الشعب الجزائر ي يتم عبر أطفالها، ولذلك فإننا لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا إن ثلاثية "ديب" هي رواية الطفولة بامتياز، وأي طفولة ؟ إنها طفولة بائسة معذبة محرومة.

وتدور أحداث هذه الثلاثية بين عامي 1939م و 1942م، فالأزمنة الداخلية للرواية تمتد من إعلان الحرب العالمية الثانية سنة 1939م إلى غاية دخول الأمريكان إلى الجزائر نهاية 1942م، وقد استوحى "محمد ديب" هذه الأحداث من الواقع الذي عاصره.

ففي الجزء الأول "الدار الكبيرة" تطغى شخصية الطفل "عمر" على المشهد الروائي؛ فعمر هو الشخص الذي يبحث عن الحقيقة والخلاص من الوضع الذي يحياه وهو رمز للشعب الجزائري كله، وتدور جل أحداث هذه الرواية في "دار سبيطار" التي تقع في مدينة تلمسان. أما الجزء الثاني من الثلاثية –الحريق– فتدور فحوى أحداثه في الريف؛ إذ يرتحل عمر إلى هناك فيتبنى صوت الفلاحين وقضاياهم ويعاشر أطفالهم وما يعانونه، أما فيما يخص الجزء الثالث –النول– فيرجع فيه عمر إلى المدينة، لكن مسرح الأحداث ينحصر في معمل النسيج، وفيه انضم عمر إلى سرب الأطفال العاملين تاركا بذلك مقاعد الدراسة مجبرا لا مخيرا.

[1] . أم الخير جبور، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية–دراسة سوسيونقدية، ط 01، مطبعة بربمارين، وزارة الثقافة، الجزائر، 2013م، ص 341.

إن القاسم المشترك بين الأجزاء الروائية الثلاثة –الدار الكبيرة، الحريق، النول– هو الشخصية البطلة (الأساسية) وهي شخصية الصبي "عمر" فمن خلال عينيه ومشاعره يطلعنا المؤلف على العالم الذي يحيط به.

إذن فثلاثية الجزائر قد رسمت الصورة الكاملة لحياة الجزائريين في شتى الجوانب وبمختلف طبقاتهم فهي صرخة احتجاج على الاستعمار والبؤس ورفض للظلم، وقد أثارت الرأي العام الفرنسي لأنها فضحته أمام الرأي العام العالمي، ولأنها نشرت في فترة حساسة من التاريخ الجزائري أي تاريخ علاقة الشعب الجزائري بالاستعمار (العلاقة الجدلية بينهما). كما استقطبت كذلك اهتمام الصحافة الفرنسية والأوربية كونها أول رواية لكاتب جزائري من أصول عربية إسلامية مكتوبة باللغة الفرنسية. كما أنها كثيرا ما أسالت حبر القلم النقدي إذ عدّها النقاد لوحة فنية نحتت فيها معالم المعاناة الجزائرية، أما من الناحية الفنية فترى "يمنى العيد" «أن روايات ديب الأولى أسقطت قوانين السرد القصصي من بطل، عقدة، حل»[1] فهذا الجانب مظهر من مظاهر التجديد عند "محمد ديب"، لذلك عدت ثلاثيته من أروع روايات الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية.

[1]. أم الخير جبور، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية–دراسة سوسيونقدية، ص 351.

المبحث الأول: ترجمة المؤلف

أولا: حياته

هو الأديب والكاتب الجزائري "محمد ديب"، لقب بالأب المؤسس للأدب المغاربي المكتوب باللغة الفرنسية، ولد يوم 21 يوليو 1920م بتلمسان، من عائلة بورجوازية مفلسة. عاش طفولة محرومة بعد وفاة والده وهو في سن العاشرة من العمر، ورغم الظروف السيئة التي عاشها نتيجة اليتم فإن "ديب" زاول دراسة في مسقط رأسه بالمدرسة الفرنسية الاستعمارية وفق «مبادئ اللغة الفرنسية وثقافتها وإيدولوجيتها الإثنومركزية*»[1] والتي كانت تفرض على عموم الشعب الجزائري.

سافر "ديب" إلى مدينة "وجدة" المغربية من أجل الدراسة، بدأ حياته المهنية مبكرا حيث امتهن التدريس في قرية "زوج بغال" غرب الجزائر على مقربة من الحدود المغربية عام 1939م. وفي عام 1942م انتقل للعمل في السكك الحديدية، ثم باشر العمل «محاسبا ثم مترجما في جيش الحلفاء إبان الحرب العالمية الثانية خاصة أنه كان يتقن الفرنسية والإنجليزية»[2].لينتقل بعد ذلك إلى العمل مصمما للديكورات عند بعض حرفيي النسيج بتلمسان كان ذلك من عام 1945م إلى 1947م.

وفي عام 1948م انتقل إلى العاصمة والتقى فيها بكبار الكتاب الفرنسيين منهم "ألبير كامو" و"جان سيناك" و"لويس جيو"، وكذا كوكبة من الأدباء الجزائريين مثل "مولود فرعون" و"كاتب ياسين". وفي عام 1950م انتسب إلى الصحافة فعمل في جريدة "الجزائر الجمهورية" إلى جانب الأديب "كاتب ياسين"، كما اشتغل في يومية "الحرية" الناطقة باسم الحزب الشيوعي الجزائري الذي كان عضوا فيه.

تميزت كتابات "ديب" الصحفية بمناهضتها للاستعمار الفرنسي «فقد عرف بأدائه الحر وميله إلى التجديد فكرا وأسلوبا»[3]هذا الأمر لم يرض سلطات الاحتلال الفرنسي فاتهمته بالوطنية الزائدة والتحريض ضدها فقامت بإبعاده إلى فرنسا ليجوب بعد ذلك عدة أوطان كلاجئ فيها منها "إيطاليا"، "أمريكا"، ودول أوربا الشرقية، وفي

---

* كل دراسة خاصة بطائفة أو عرق، وقد عملت فرنسا على دراسة الجنس الأوروبي.

[1].سليم بتقه، "الكتابة الإيدولوجية عند محمد ديب"، مجلة الناص، ع 08، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة جيجل، الجزائر، مارس 2008م، ص 256.

[2]. باديس فوغالي، معجم القصاص الجزائريين في القرن العشرين، د.ط، منشورات مخبر الدراسات الأدبية والإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2005م، ص 125.

[3]. الموسوعة العربية الميسرة، ط 03، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 2009م، مج 06، (مادة م)، ص 3046.

عام 1960م استقر في المغرب، ومع استقلال الجزائر عام 1962م عاد إلى وطنه وأهله، لكنه سافر مرة أخرى إلى فرنسا مفضلا الاستقرار فيها إلى أن وافته المنية يوم 02 مايو 2003م في باريس ودفن بها بطلب منه.

ثانيا: أهم مؤلفاته

يعد "محمد ديب" من الروائيين الجزائريين «الذين برزوا في الخمسينيات واستمر وحده في الكتابة أثناء سنوات الحرب»[1]، وقد فاقت أعماله القصصية والروائية ثلاثين مؤلفا.

وقد افتتح "ديب" مسيرته الإبداعية برواية "الدار الكبيرة" (La grande maison) 1952م وأصدر بعدها رواية "الحريق" (L'incendie) 1954م، وفي عام 1957م أخرج للعلن رواية "النول" (Le métier à tisser)[2] وهذه الروايات الثلاثة تشكل ثلاثيته المشهورة، قال عنه الروائي "الطاهر وطار": «محمد ديب في ثلاثيته الروائية تفوق على نجيب محفوظ في "زقاق المدق" و"القاهرة الجديدة"، وعلى حنة مينة في "المصابيح الزرق" وعلى "غائب طعمة" في "النخلة والجيران"، فكل هذه الروايات صدرت في أوقات متقاربة وتعالج موضوع الحرب العالمية الثانية ومشكلاته»[3].

بعد ذلك توالت إبداعات "ديب" إذ نشر قصة "صيف إفريقي" (Un été africain) 1959م، حيث صور موقف مختلف فئات المجتمع الجزائري من الحرب[4]. و في عامي 1962م 1964م على التوالي أصدر روايتيه "من ذا الذي يذكر البحر" (Que se souvint de la mer) و"ركض على الضفة المهجورة" (Cours sur la rive sauvage)، وهاتان الروايتان تختلفان عن سابقتيهما في الأسلوب والطرح حيث جنح الكاتب إلى الخيال فيهما عكس ما كانت عليه كتاباته السابقة. وفي عام 1968م تألق "محمد ديب" في رواية "رقصة الملك" (La dense de roi) التي «تتناول في موضوعها العام، رجوع قدماء المجاهدين "عرفية ورضوان" إلى الوسط الاجتماعي الجديد بعد الاستقلال وعدم قدرتهما على الانسجام مع الأفكار الجديدة المستسلمة واللامبالية».[5] فهذه الرواية تدعو إلى التصدي للاستغلال والتخلف الذي خلفه الاستعمار.

ولم يجف قلم "ديب" الإبداعي فقد استمر على دربه إذ أصدر من عام 1970م إلى عام 1990م باقة من الروايات، هي:

---

[1]. عبد العزيز بوباكير، الأدب الجزائري في مرآة استشراقية، د.ط، دار القصبة، الجزائر، 2002م، ص 39.

[2]. المرجع نفسه، ص ن.

[3]. "محمد ديب"، موسوعة الجزيرة: <www.aljazeera.net/encylopedia/icons/2014/12/22,2-05-2015,21:15>.

[4]. عبد العزيز بوباكير، الأدب الجزائري في مرآة استشراقية، ص 39.

[5]. أم الخير جبور، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، دراسة سوسيونقدية، ص 377.

- إله وسط الوحشية، Dieu en barbarie، 1970م.
- في المقهى ،Au cafe، 1956م.
- هابيل، Habel، 1977م.
- سطوح أورصول، Le semmel d'eve، 1985م.
- الصحراء بدون لف، Le desert sans d'etour، 1990م.
- ثلوج من مرمر، Les niege de marbres، 1992م[1].

وقبل أن يكون "دب" روائيفقد كان شاعرا إذ طالما كان يرد «أنا شاعر بامتياز وقد انتقلت من عالم القصيدةإلى الرواية ولم يحدث العكس »[2]؛ فقد ألف عدة دواوين شعرية أولها "الظل الحارس" (ombre gardiene كان ذلك 1961 عام. بعدها أصدر كتاب "الصيغ" (Formulaire)، وفي عام 1979م أصدر ديوانا آخر هو "نار،نار جميلة" (Feu beau feu)، كما كتب "ديب" عدة مسرحيات أهمها "ألف صبيحة لمومس" (Mille houras pour une gueunse) عام 1980م.

إن "محمد ديب" لم يغفل التراث؛ فقد جمع طائفة من الحكايات التراثية المتداولة في بلدان المغرب العربي هي "بابا فكران" 1959م، و"حكاية القط الممتنع عن الكلام" 1974م، و"سالم والمشعوذ" 2000م.

والمطلع على أعمال "محمد ديب" يلاحظ أن معظمها يتعلق بالاستعمار وحرب التحرير الوطنية ، فطبيعة الفترة التي عاشها الكاتب فرضت عليه الخوض في أعماق الأمة الجزائرية لكشف مأساتها وإيجاد مخارج لمعاناتها.

والجدير بالذكر أن "ديب" لم يكن كاتبا روائيا وشاعرا فحسب بل رساما كذلك، فله عدة لوحات فنية رسمتها أنامله بعضها محفوظ في بيته وبعضها الآخر في أحد متاحف باريس.

ثالثا: الجوائز والأوسمة

كرم "محمد ديب" بعدة جوائز تقديرا له على مجهوداته الإبداعية والفنية؛ فقد نال الجائزة الدولية التقديرية للآداب رفقة الشاعر "محمد العيد آل خليفة" عام 1963م، لكنه تبرع بقيمتها لدور العزة والمعدمين ومعطوبي

[1]. باديس فوغالي، معجم القصاص الجزائريين في القرن العشرين، ص 126.
[2]. أم الخير جبور، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، دراسة سوسيونقدية، ص 346.

الثورة التحريرية، ويعد أيضا أول كاتب مغاربي يتحصل على جائزة الفرنكوفونية عام 1994م احتفاء بأعماله السردية والشعرية حيث تسلمها من الأكاديمية الفرنسية، كما فاز بجائزة "مالارمية" عام 1998م[1].

ملاحظات عامة:

الملاحظةالأولى: "محمد ديب" واحد من أولئك الذين يعانون المنفى والفقدان، فقدان الهوية والتأرجح في غياهب تلك اللغة –لغة الآخر– التي مثلت له المأوى. فاللغة الفرنسية لم يحبها أبدا غير أنها كانت ملجأه وطريقه الذي سلك، من أجل أن يصدح بكل ما في داخله من متناقضات ومشاعر ، فهو قد عبر عن انتمائه لوطنه بلغة غير لغة شعبه، وقد عقب "أندري دلماس" (André Dalmas) على ذلك بقوله: «محمد ديب كاتب حقيقي يتقن اللغة الفرنسية كاتب حقيقي من أصل عربي»[2]

الملاحظة الثانية: رغم أن "ديب" يكتب بلغة "موليير" فإنه يلجأ أحيانا إلى اللغة العربية والدارجة الجزائرية كما يستخدم صيغا تحلينا إلى ثقافة المجتمع الجزائري، هذه الصيغ مستقاة من الأوساط الشعبية البسيطة.

الملاحظة الثالثة: رد "محمد ديب" على من انتقده كونه يكتب بلغة المستعمر «إن الصور التي تسكن مخيلتي نشأت من العربية العامية التي هي لغتي الأم، ولكن الإرث ينتمي إلى التراث الأسطوري المشترك، ويمكن اعتبار الفرنسية لغة خارجية –رغم أني تعلمت الكتابة بالفرنسية – ولكنني اخترعت لغتي ككاتب من جوهر اللغة التي تعلمتها وبذلك أحتفظ بتلك المسافة الساخرة التي تسهل الاستطلاع بدون انفعال»[3]

الملاحظة الرابعة: تدرج أعمال "محمد ديب" التي صدرت قبل عام 1962م ضمن الأدب الملتزم –أدب الالتزام السياسي– فديب في كتاباته اختار المواجهة المباشرة مع القوى الاستعمارية.

الملاحظة الخامسة: لقد استطاع "محمد ديب" أن يوصل رسالة الشعب الجزائري إلى المحتل الفرنسي؛ فقد كان يلتمس قارئا فرنسيا يجهل الوضع الراهن آنذاك، ولذلك استطاع أن يخلق أزمة ضمير لدى الفرنسيين لأنه أدانهم وواجههم بلغتهم.

الملاحظة السادسة: لقد ابتعد "محمد ديب" في السنوات الأخيرة لحياته عن الأضواء واختار العزلة الإعلامية، فكانت كتاباته هي همزة الوصل بينه وبين جمهوره غير أن هذه السرية في حياته والعزلة لا تعني ان إطلاقا أنه لم يكن منخرطا في قضايا عصره.

---

[1]. "محمد ديب"، موسوعة الجزيرة.

[2]. أم الخير جبور، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية–دراسة سوسيونقدية، ص 350.

[3]. سليم بتقه، "الكتابة الإيديولوجية عند محمد ديب"، مجلة الناص، ع 08، ص 269.

المبحث الثاني: صورة الطفل في رواية الدار الكبيرة (أطفال المدينة)

أولا: مفهوم الصورة

لفظة الصور «ترد في كلام العرب على ظاهرها وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته وعلى معنى صفته، يقال: صورة الفعل كذا وكذا أي هيئته، وصورة الأمر كذا وكذا أي صفته» [1].

وتعد الصورة عموما اصطلاحا يشمل التشبيه والمجاز ، وتكون بصرية، كما تكون سمعية ذهنية، فهي في علم النفس «إعادة إنتاج عقلية، ذكرى، لتجربة عاطفية أو إدراكية غابرة، ليست بالضرورة بصرية» [2].

والصورة أساس الفن بصفة عامة والشعر بصفة خاصة، لذلك فهي ليست أمرا جديدا «فإن الشعر قائم على الصورة منذ أن وجد حتى اليوم» [3]. فكلمة "الصورة" تستعمل «عادة للدلالة على كل ماله صلة بالتعبير الحسي وتطلق أحيانا مرادفة للاستعمال الاستعاري للكلمات» [4]. ويقصد بالصورة هنا المصطلح الشائع للصورة الشعرية التي تهتم بالتشبيه، والمجاز، والاستعارة والكناية

والسبيل لبناء صورة هو الوصف الفني، الذي هو أداة التعبير «بالأسلوب الذي يجسم الإحساس، وتجسيم الإحساس لا يمكن أن يكون إلا في قالب من الصورة» [5]، وعن طريق الخيال تتشكل هذه الصور وتتلون على يد الكاتب «الذي يتخذ الوصف الفني أداة لبناء صورة معينة لمكان أو شئ أو شخصية أو غير ذلك، باللغة الموحية القديرة على تجسيد الفكرة أو الشعور في صورة تصير معها الفكرة أو غيرها من المشاعر شيئا محسا، حيث تأتي الأهمية الخاصة للعناصر الأساسية التي تساعد على تشخيص تلك الصورة في شكل معين: إيجابي أو سلبي أو حيادي وقد يأتي بناء الصورة لغاية معينة، كما قد يأتي عرضا على قلم الكاتب» [6]، فتعكس تلك الصورة إحساس الكاتب وانفعاله ويؤثر في الآخرين أي المتلقين، ويخضع هذا التأثير لمستوى تكوين الصورة وعلاقتها بالمتلقي.

وكثيرا ما تختلف طبيعة الصور ومكوناتها ، فمنها ما يأتي من المشاهدة ومنها ما يأتي من السماع، كما أن من الصورة ما هو مادي و منها ما هو معنوي، وقد تتعاضد العناصر بحسب السياق الذي ارتسمت فيه أو طبيعة

---

[1] .ابن منظور، لسان العرب،(مادة صور)، مج 08، ص 304.

[2]. رنيه ويليك وأوستن وارين، نظرية الأدب، تر: محيي الدين صبحي،د.ط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان ،1987م، ص 194.

[3] . إحسان عباس، فن الشعر، ط 01، دار صادر، بيروت، لبنان، دار الشروق، عمان،الأردن، 1996م، ص 193.

[4]. مصطفى ناصف، الصورة الأدبية، د.ط، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، د.ت، ص 03.

[5]. محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث- اتجاهاته وخصائصه الفنية 1925-1975م، ط 02، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2006م، ص ص 427، 428.

[6]. عمر بن قينة، الشكل والصورة في الرحلة الجزائرية الحديثة، ط 01، شركة دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1995م، ص ص 107، 108.

ما تشخصه إنسانا أو شيئا أو سواهما، فتتداخل عناصر مختلفة في هذا التشخيص والتصوير، ويتوقف هذا على تجربة الكاتب وإمكاناته الفكرية وأدواته الفنية.

وعلى هذا يتأكد أن بناء صورة ما لا ي تم من فراغ خالص، ولا يعكس الإحساس باللحظة فقط، بل «كثيرا ما يتكئ على تجربة سابقة ذهنية أو مباشرة، ولكل من الإحساس والتجربة السابقة أهمية، فالانفعال باللحظة له دوره كما أن للتجربة السابقة في هذا المجال دورها في إشباع الصورة التي قد تنتج عن انفعال جديد يطور تجربة سابقة اختمرت أو يجد فيها ثراء»[1].

فالصورة الفنية الناجحة هي الصورة التي تنمو طبيعيا ضمن حركية يمل يها واقعها النامي أو الجديد أو المتجدد، والتي تعكس صدق إحساس صاحبها وقوة انفعاله مع جودة التعبير والتصوير.

نشير هنا أن البحث في صورة الطفل في الرواية الجزائرية الحديثة لا يتسع ليشمل الصورة الشعرية، إنما ينحصر فقط في إطار الصورة الذهنية التي تعني «عودة الإحساسات في الذهن مع غياب الأشياء التي تثيرها أو تعبر عنها»[2]، على أننا سنقتصر في دراستنا هذه على الحضور أو الوجود الفيزيقي -في النص الروائي- دون التطرق إلى التحقيق الفني والجمالي، وسنحاول استجلاء مختلف صور الطفل في ثلاثية "محمد ديب" -الدار الكبيرة، الحريق، النول- من منظور نفسي واجتماعي. ويكون التركيز في هذه الدراسة على شخصية الطفل "عمر" الذي يمثل بطل الرواية، ويرمز إلى طفولة الشعب الجزائري ويجسد ضعفه وحيرته في ظل الاستعمار الفرنسي.

ثانيا: ملخص رواية الدار الكبيرة

يتحدث الروائي الجزائري "محمد ديب" في هذه الرواية عن مجمع سكني يدعى "دار سبيطار"، والذي يضم مجموعة كبيرة من الأسر قاسمه ا المشترك هو الفقر والحرمان، وضمن هذا التجمع تدور أحداث الرواية التي يتناول فيها أوضاع المجتمع الجزائري، و قد جسد "محمد ديب" هذه الأوضاع في أشخاص الرواية، حيث عرض كيفية عيشهم وتعاملهم وتفكيرهم في ظل الواقع الاستعماري شديد الوطأة على الشعب الجزائري . وبهذا تكون الرواية واقعية بامتياز تجسد الواقع بحذافيره كما أن أحداثها أقرب إلى الوقائع التاريخية، ومن هنا كان الكاتب يصر على إعطائنا صورة واقعية عن المجتمع الجزائري والطريقة التي يفكر بها.

[1]. عمر بن قينة، الشكل والصورة في الرحلة الجزائر الحديثة، ص 108.

[2]. مجدي وهبة وكمال المهندس ،معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب،ص227.

وفي خضم هذا الاحتلال لا بد أن يكون الجوع والفقر طاغيين على المجتمع، ومن هنا لا بد من وجود من يقدم البديل لهذا الوضع، البديل الذي يبحث عن تقديم الحياة الكريمة للشعب وتيسير سبل العيش، ولا يكون هذا إلا عن طريق الثورة وعدم الخضوع للذل والإهانة والتسلط الاستعماري.

لقد صور لنا الروائي "محمد ديب" في هذه الرواية (الدار الكبيرة) مشاكل سكان مدينة تلمسان ، حيث كان يعيش بطل الرواية الطفل "عمر" الذي لا يتجاوز الثانية عشر من عمره؛ وهو يمثل نموذجا حيا وصورة للطفولة في كنف الظلم والاستبداد، هذا الصبي الذي عضه الدهر بأنياب الجوع والفقر، فقد كانت غايته إشباع هذا الجوع الذي جعله يلهث وراء قطعة خبز، كما أنه يط مح وك كل إنسان في هذا العا لم بالعيش في حرية وكرامة وعدل، وأن يشبع فطرته باللعب كباقي أطفال العا لم.

كان "عمر" الرمز المحرك لبذور المقاومة والثورة، ونموذجا للطفل الجزائري في تلك المرحلة الحساسة، وقد وفق "محمد ديب" في وصفه وصفا حيا بحيث يتمكن القارئ من رؤيته، وهو يتسكع في شوارع مدينة تلمسان باحثا عن لقمة تسد رمق جوعه بعد أن أصبحت معدته خاوية، كما برع في رسمه بصورة المشاغب، وعلى الرغم من هذا تبقى شخصية عمر تعكس حالة البراءة بحيث تقارب الموجود المزعج بأحاسيس غاضبة، وبتساؤلات لا تفهم المعاناة الراهنة لكل الشعب الجزائري في تلك المرحلة، معاناة تشكلها صور متكررة يشاهدها هذا الصبي بين أهله في الدار الكبيرة حينا وفي المدرسة حينا آخر، عندما يتسارع الجميع ويتصارعون لأجل قطعة رغيف . والأكيد أن شخصية "عمر" لم تكن خيالية، وكل ما قيل عنها لم يكن من ابتكار الروائي، فهي تشخص الواقع، ولم تكن من ابتكار الخيال.

كما صورت أم عمر"عيني"ببراعة بحيث يتخيلها القارئ بلحمها ودمها بل ويتمكن من سماع صراخها وتعنيفها لأولادها، وتظهر هذه الرواية إعجاب الجارات بقوة وصلابة هذه المرأة الأرملة المكافحة التي تعيل ثلاثة أبناء "عمر" و"عيوشة"و"مريم"، بعد أن مات زوجها بمرض الصدر ولحق به ابنه البكر"جيلالي" بعد سنتين مصابا بالمرض نفسه. لذا فهي تعمل ليلا نهارا ولا تكاد تؤمن للأسرة ما تقتات به، وما عساها أن تفعل إذا ما أضيف إلى أسرتها فم جديد، ومن هنا كان حلول أمها على الأسرة كارثة تكلفها من أمرها كرها وغضبا لا ينتهيان، هكذا نفهم ثورة الأم "عيني" وضيقها حين حمل لها أخوها أمه المريضة حيث كانت تعاملها بأشد القسوة وكأنها ليست أمها بل امرأة من خارج العائلة.

وكانت "عيني" تدافع عن نفسها وعن أطفالها بالفضيحة والصراخ، إضافة إلى أنها تعمل دون توقف أشبه في ذلك بآلة، فهي تجهد نفسها في العمل، فلا تكاد تتوقف لحظة واحدة، تظل ساهرة بعد نوم الأولاد تعمل

لإنهاء ما كان يطلب منها، وتستمر على منوالها في فترات النهار، فإذا استيقظ الأطفال وجدوها جاثية على آلة الخياطة وكأنها ألصقت على كرسيها، فلا تعرف راحة أو نوما كباقي البشر.

إن أبطال "محمد ديب" في هذه الرواية يؤكدون على منطق ضرورة تغيير الأوضاع لإيجاد حياة أفضل، وتطاردهم الشرطة لمجرد أنهم يريدون الخير لوطنهم وشعبهم وخاصة إذا ما تعلق الأمر برائد الوطنية والمناضل السياسي "حميد سراج"، وتجدر الإشارة أن ظهور هذه الشخصية يتحقق بالنيابة عنه على لسان بعض شخصيات الرواية كعمر، أو "عيني" من خلال الحوار الذي جمع ها بالجارة "زينة" فقد استرجعتا حادثة اقتحام الشرطة للبيت بحثا عنه، إذ إنه يسكن مع أخته وأولادها وجريمته لم تكن جنائية بل هي سياسية في المقام الأول، وبالنسبة لملامحه النفسية، فهو قليل الكلام، وليس بالشخص الاجتماعي ، لديه أخلاق حسنة، لا يلفت الانتباه إليه، يقارب "حميد سراج" الثلاثين سنة، و كله بساطة وتواضع، لكنه يجعل القارئ متأكد ا أنه عاش وعايش كثير ا من الأحداث، حينما يبدأ في الكلام لا يسمع له صوت فهو يتحدث بنبرة هادئة ومنخفضة، ولكنه يفعل ذلك بشجاعة دون خجل، دائما معه كتب قديمة تكاد أغلفتها تتقطع، إنه عصامي كون نفسه بنفسه، يقدره الجميع لأنه يملك قوة تكاد تكون خارقة، يحييه الرجال من سكان الدار تحية تقدير واحترام لأنه رجل مثقف، وكان من النادر في تلك الفترة أن يعثر على جزائري عربي أو مسلم مثقف.

يشغل "حميد سراج" وظائف كثيرة في هذه الرواية فهو قدوة للجزائريين البسطاء وحارس لحب الوطن، فقد تعلم "عمر" منه، وتعلق بشخصيته فأصبح كثير الاهتمام بالكتب بعد تواصله معه وبعد سماعه لخطبه التي يلقيها في الاجتماعات، وتعلم منه القراءة والمطالعة فهو الموجه الثقافي والمرشد السياسي.

هكذا إذن أثر "حميد سراج" في شخصية الطفل، وفي تفتح وعيه ولا سيما بعد أن تسلل ذات يوم فحضر أحد اجتماعاته، فرآه يحرض الناس على الثورة ويشرح لهم وضعهم البائس.

وبهذا فالروائي "محمد ديب" أحاط بالدار الكبيرة وصفا ودراسة فهي صورة لبقية الديار المشابهة لها، بل نستطيع أن نتخذها صورة للجزائر كلها بواقعها وتطلعاتها، إن هذه الدار أشبه بالسجن الكبير الذي يعيش فيه الناس، ويضطربون ويعانون الحياة القاسية الأليمة دون أن يملكوا لهذا الواقع البائس تغييرا أو يستطيعوا منه انفلاتا في هذه الدار عاش بطل الرواية "عمر"، وفيها تفتحت شخصيته رغم ما تعرض له من أذى أمه والمحيطين من حوله، وفي هذه الدار لاحظ كيف يعيش الناس، وساعد أمه فرافقها إلى صاحب العمل الذي كان يجني الربح من عملها، ليحسب لها أجرها خشية أن يغشها، كما رافقها لابتياع ما تحتاج إليه الأسرة، ولقد رضي بالجوع والحرمان مكرها وعضه الفقر والعوز بأنياب حادة، ويعمل عمر في الأخير عند حلاق في الصيف، كما تعمل أخته في مصنع السجاد.

إن مقدرة "محمد ديب" الروائية تتجلى في تصوير تكون شخصية الصبي "عمر" بطل هذه الرواية، وتعرفه على العالم وسط هذا الجو الذي نشأ فيه، فهو يحاول أن يفهم، ويسعى إلى أن يعرف سبب ذلك الشقاء الذي يقاسيه وأفراد المجمع السكني "دار السبيطار"، يؤمن في الأخير بأن الثورة على هذه الأوضاع القاسية هي أنجع حل[1].

ثالثا: تجليات صورة الطفل في رواية الدار الكبيرة

تطلعنا رواية الدار الكبيرة على الحالة الاجتماعية والاقتصادية وما تشكله من أفكار ومفاهيم عند الأفراد، وعند الأطفال بالخصوص ، كون هذه الرواية إحدى التحف الفنية التي رسمت بجدارة حالة الطفل الجزائري، وقد صور الروائي هذه الحالة في الطفل "عمر" الذي اختاره شخصيةً بطلة في الرواية وفي هذا الصدد يقول "أحمد منور":«يمكن القول إن الكاتب قد وجد في الطفل عمر شخصية نموذجية ممتازة للتعبير بشكل رمزي مناسب عن العديد من الأفكار التي كانت تدور في ذهنه وعن الأوضاع المزرية التي عاشها الشعب الجزائري في فترة من أحلك فترات تاريخه، ألا وهي الحرب العالمية الثانية، فقد كانت حالة الشعب أشبه ما تكون بحال الطفل عمر في يتمه وجوعه المزمن، وحيرته في فهم ما يجري حوله من صراع بين كبار العالم»[2].

فالطفل "عمر" إذن تقمص شخصية طفل الثورة بامتياز، هذا الطفل الذي نال منه الجوع والفقر والخوف والقمع والضرب، والحرمان من الأب، فهو لا يشكل حالة الطفل العادي بل الطفل غير العادي، الطفل الذي يعيش في ظل الاحتلال والواقع المتخلف والفقير في آن واحد، طفل شرب من كأس الكبار وهو مخلوق صغير، وتحمل مسؤوليات ثقيلة لم يستطع الكبار وضعها على عاتقهم، وقد أسقط بعض النقاد شخصية الطفل "عمر" على الكاتب "محمد ديب"؛ فهي على حد اعتقادهم «تستعيد في العديد من جوانبها ذكريات وتجارب مر بها الكاتب نفسه في سنين طفولته ومراهقته الأولى فقد جرب مثل عمر مرارة اليتم، حين فقد والده مثله، وهو في سن الحادية عشر، ومثله افتقد ذلك الوالد حين كان في أمس الحاجة إليه ليجيبه وهو في تلك السن الحرجة عن الأسئلة الحائرة التي كانت تفرض نفسها عليه »[3]، غير أن "محمد ديب" نفى أن تكون شخصية عمر تحيل إليه وذلك في حوار أجرته معه جريدة "الجهد الجزائري" في (1952/12/19م) حيث يقول:«طفولتي لا علاقة لها

[1]. محمد ديب، ثلاثية محمد ديب، الدار الكبيرة، تر: سامي الدروبي، د.ط، دار الوحدة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1980.
[2]. أحمد منور، أزمة الهوية في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية- دراسة أدبية، د.ط، دار الساحل، الجزائر، 2013م، ص ص 386، 387
[3]. المرجع نفسه، ص 387.

بطفولة عمر، ولكن ما قيل عن عمر والوسط الذي يعيش فيه كان موجودا في الواقع، فلا وجود لمعلومة من المعلومات أو جزئية من الجزئيات وردت من نسج خيالي»[1].

إذن فـ: "محمد ديب" اختار الطفل "عمر" رمز ا للثورة، ومرآة لما يعيشه الشعب الجزائري من معاناة مع المغتصب المتعدي على حريته. والغرض من هذه الرواية إنما هو إسماع صوت الشعب الذي فاقت حيرته حيرة الأطفال، فالطفل "عمر" إذن يرمز للحيرة على الوضع المزري الذي يعيشه، والذي خلف فيه تراكمات انفعالية كالخوف والغضب والثورة مثله مثل باقي الأطفال الذين سجنوا في حضانة تتكفل بتطعيمهم كل أنواع التعذيب والتشريد بدل الرعاية والحنان.

وفي بداية الرواية تتجلى لنا قمة العوز والفقر إذ يفتتح الكاتب روايته بعبارة قالها بطل الرواية "عمر" ل .: "رشيد بري" وهو يحمل قطعة خبز «هات قليلا مما تأكل»[2]، فالمتلقي لهذه العبارة يأنس لتلك البطون الخاوية وهي تنادي على من يملؤها ولو بقطعة رغيف، فالحالة الاقتصادية إذن للمجتمع تنبيء بالخطر المحدق، الخطر الذي ألقى بسدوله على جميع الفئات نساء ورجالا، شيوخا وأطفالا، وليس "عمر" لوحده من يطلب قطعة الخبز، بل هناك مجموعة من الأطفال ممن جعلهم الاستعمار يلهثون وراءها ، وتتجسد هذه الصورة في الرواية حيث يقول "محمد ديب" «ولم يكن عمر وحيدا فإن شبكة من الأيدي قد امتدت تلح كل منها في طلب نصيبها من الصدقة فاقتطع رشيد لقمة صغيرة من الخبز، فوضعها في أقرب راحة إليه»[3].

هكذا إذن كان هاجس الجوع ينغص حياة الأطفال، فليست لهم حيلة سوى أنهم يحصلون على الأكل بأي طريقة، والنموذج في ذلك "عمر" حيث كان يطالب رفاقه في المدرسة بالخبز فإن لم يطيعوا أمره همَّ عليهم بالضرب ويتجسد ذلك في قول "محمد ديب": «كان ثمة تلاميذ يطلبهم عمر في كل يوم: يطالبهم بنصيبه، فإن لم يطيعوا أمره فورا، كان جزاؤهم الضرب في كثير من الأحيان، أما إذا أطاعوا فإنهم يشطرون طعامهم شطرين ويقدمون له الشطرين كليهما ليختار أحدهما على ما يحلو له»[4].

كما كان "عمر" يحصل على الخبز عن طريق قيامه ببعض الأعمال لجارته "يمينة" التي كانت تكافؤه جزاء ذلك العمل أكلا، فالجوع والحرمان دفع ا الطفل "عمر" ليعمل المستحيل كي يحصل على لقمة يسد بها أمعاءه الخاوية وهذا ما خلق في ذاته تمردا على هذه الأوضاع المزرية، وامتد هذا التمرد حتى إلى أمه خصوصا إذا ما تعلق

---

[1]. أم الخير جبور، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، ص ص 340، 341.

[2]. محمد ديب، ثلاثية محمد ديب، الدار الكبيرة، تر: سامي الدروبي ،ص13.

[3]. المصدر نفسه، ص ن.

[4]. المصدر نفسه ،ص ص 13، 14.

الأمر بالطعام، فكان في كل مرة يُحدث ثورته والتي يسمع صداها كل سكان "دار السبيطار" لا سيما إذا كان الغذاء "عكوبا" يقول "عمر":«هذا هو الغذاء؟ كانت عيني تقشر عكوبا بلديا قصيرا شائكا.

نعم هذا هو الغذاء!

في أي ساعة نأكل؟ هي الآن الحادية عشر والنصف، لعن الله أبا العكوب وأمه!

وهم عمر بأن يخرج »[1].

لقد رسم الروائي هذه الشخصية في كثير من الحرارة والرقة فصور عفويتها وعواطفها وتفتحها على العالم ببراعة، وكان "عمر"رغم صغر سنه يشعر أنه مسؤول على زميل له في المدرسة يسمى " صاحب القميص كاكي"،فحينما يختفي هذا الطفل عن أنظاره تتسارع إليه أفكار وأوهام بأن هذا الطفل ربما يكون قد مات، فينسج في خياله أحداثا لا وجود لها ويؤلف قصصا غريبة تزيده اضطرابا وقلقا «إن صاحب القميص كاكي لا وجود له في أي مكان، ما عساه يصبح بدون صاحب القميص كاكي؟ إنه يتخيل صاحب القميص كاكي عند أهله دون ريب، ينتظره ويتخيله جالسا إلى المائدة، ويتخيله لاعبا في فناء بيته الكبير (...) ومع استمرار قلقه وخوفه تخيل أن صاحب القميص كاكي قد مات، ولكن في اللحظة التي كان يغلق فيها باب الفصل، لمح عمر قامة الصبي النحيل تجتاز ساحة المدرسة مهرولة»[2].

وربما يكون خوف "عمر" على حياة صاحب القميص كاكي خوفاعلى حياته هو أيضا، وكأنه يرى صورته في مرآة هذا الطفل«فثمة أوصاف تستند في الدار الكبيرة لهذا الطفل هي في الحقيقة حالة غير مصرح بها لعمر إذ هناك صورة نسبية تعزز فكرة اعتماد محمد ديب على الازدواجية الوصفية التي يقصد بها البطل فقط، والعكس صحيح، فالأوصاف التي تلحق بـ"عمر"يقصد بها كل أطفال الجزائر، فالتماثل واضح بين الطفلين (عمر وصاحب القميص كاكي)فهما في سن واحدة، ويعانيان من المشاكل نفسها ومن طبقة واحدة »[3].

فالطفل "عمر" إذن يمثل أطفال الجزائر ككل، فهو نموذج حي لأمثاله الذين رمى بهم الاستعمار في الشوارع باحثين عن لقمة تدفئ أمعاءهم. ولم يكن "عمر" يخاف على حياة " صاحب القميص كاكي" فحسب بل كان خوفه يزيد كل يوم على جدته التي نهش عظامها المرض، والتي تآكل قلبها من حقد ابنتها عليها هـ اته التي كانت ترميها بأوحش العبارات وأحقرها «ليت الموت يأخذك لماذا لم ترفضي أن يحملك إلى هنا؟ (...) ودَّ عمر لو

[1]. محمد ديب، ثلاثية محمد ديب، الدار الكبيرة، تر: سامي الدروبي ، ص 22.

[2]. المصدر نفسه ،ص18 .

[3]. أم الخير جبور، الرواية الجزائرية الكتوبة بالفرنسية، ص 354.

يركض إلى الشارع لو يهرب (...) فأنهض الجدة مع عيني، كان يتساءل ترى ما الذي سيقع؟ وفيما هو يتبع أمه قلقا، لاحظ أنها تجر الجدة إلى الخارج وكانت الجدة تتوسل كالمجنونة قائلة:

عيني عيني بنتي

كان عمر يرتجف إن في ضراعات الجدة خوفا لا يوصف.. إن فيها من الذعر ما جعل الصبي يشعر بحاجة إلى أن يعول هو أيضا»[1].

إذن هكذا كان "عمر"يمشي في طريقه الشائكة المليئة بالمخاوف، خصوصا وأنه يعيش في مرحلة الطفولة،هاته المرحلة الحساسة التي يتلقى فيها الطفل كل أنواع الانفعالات والأحاسيس ، ولا ننسى أن هذا الطفل الذي نتحدث عنه يعيش حالة حرب، حالة بؤس وشقاء، لقد أصبح "عمر" يحس بألم غيره، وخوفهم، يقول«هو خوف جدتي، ما في ذلك ريب كان يفهم من بعيد أن جدته خائفة »[2]، وكأنه هو الذي يتألم ، لقد انتقلت إليه هذه العدوى الغريزية على حد تعبير الكاتب، والتي كان سببها روتين الحياة الضنكة آنذاك، حتى إنه أصبح يتوقع ما سيحدث في المستقبل «إن عمر يعرف مسبقا ما سيحدث في الغد»[3].

فحالة"عمر"النفسية تشابهت مع حالة جدته الخائفة لأن "عيني" ألقت بسُمها على جميع أفراد العائلة، وحتى على سكان"دار السبيطار"، وكل هذا نتيجة الضيق والحالة المزرية التي تعيشها، فلم يسلم منها أحد، لقد كان خوف "عمر" منها شديدا لأنها تضربه وتركض خلفه، فدائما تهدده بتقطيع جسمه إن لم يطع أوامرها، فلم يجد "عمر" من يآزره سوى الشارع فهو ملاذه الوحيد، ورفيقه أيام الشدة والجوع والخوف والحرمان، وهو أيضا الحضن الآمن للهروب من الآلام التي تلاحقه في كل مرة «ظل عمر يتسكع في الشوارع إلى أن قدر أن غضب أمه لا بد أن يكون قد هدأ، فعاد إلى دار السبيطار، وفيها يتسلل نحو الغرفة، لمحته عيني، فوثبت فورا تطارده فهرب وأخذ يجدف.

يلعن أبوك يا ملعونة، تلعن أمك.

وركض إلى الشارع مرة أخرى» [4].

كما تتجسد حالة الخوف عنده عندما جاءت الشرطة إلى "دار السبيطار" في مهمة البحث عن "حميد سراج" «ووجد عمر نفسه وحيدا في فناء المنزل إن دمه يطرق صدغيه.. شرطة.. إن قلبه يهم بأن يخرج من صدره

[1]. محمد ديب، ثلاثية محمد ديب، الدار الكبيرة، تر: سامي الدروبي، ص 25.

[2]. المصدر نفسه، ص 84.

[3]. المصدر نفسه، ص 85.

[4]. المصدر نفسه، ص 76.

ود لو يستطيع أن يصرخ، وهو مستمر في مكانة"ماما"واخضل جبينه وقال بينه وبين نفسه ماما أتوسل إليك لن أضايقك بعد الآن احميني احميني... إن رجال الشرطة يخيفونه أشد الخوف (...)إنه يكرههم أين أمه؟أين السماء التي تحرسه؟»[1].

فبعد أن كان يخاف من أمه اتخذها سياجا يحميه من الشرطة، فخوفه منها لا يساوي شيئا مقارنة بخوفه من الشرطة التي هي في نظر هوفي نظر جميع الأطفال رمز للسجن والحرب والأذية، و عدم الاستقرار، والفوضى «والملاحظ أن شخصية عمر لم تكن مكتملة الوعي والإدراك، بل هي شخصية متكونة بصورة تدريجية، بحيث تكتشف بمرور الوقت، و بفعل الخيارات القهرية التي تطرح أمامها العالم الحقيقي، فجزء كبير من مثل وأحلام هذا الصبي لا تجد متنفسا لها بسبب حالة البؤس والفقر»[2].

وفي صورة أخرى نجد تأثر الأطفال بأجواء الحرب وخوفهم منها حيث لم تنعكس هذه الأخيرة على معيشتهم فحسب، بل امتد تأثيرها إلى طريقة تفكيرهم ولعبهم، حيث كانت تنشب معارك بين معسكرين للأطفال في المدرسة أو خارجها «إن هذه المعارك العنيفة الدامية أحيانا تدوم أياما بكاملها، إن المعسكرين المقاتلين، وهما صبية من أحياء مختلفة يضمان عددا من الرماة الممتازين، إن الصبية الذين تتألف منهم جماعة عمر يفوقون الآخرين مهارة وخفة وجرأة، إنهم هم الموهوبون أكثر من غيرهم رغم قلة عددهم»[3].

فالطفل الذي يعيش حالة حرب يعاني من انتكاسة نفسية، ونموذج ذلك "عمر" الذي لا يعرف أمكنة للعب سوى الشارع لأنه لم يجد الظروف مهيئة للعب في المنزل، فعمر الذي غاب عنه حنان الأب لم يجد حضن أمه دافئا يحميه من قساوة الاستعمار والشارع، بل كانت أمه عكس ذلك تدفعه إلى الشارع دفعا «ولو خطر ببالك أن تقول لأمه أنه ليس من الحكمة في شيء أن تترك ابنها يتسكع في أي مكان، وأن ذلك قد يحرفه عن الطريق القويم وقد يكسبه عادات التشرد والكسل لدهشت»[4].

فالشارع لا يرحم هذه المخلوقات الضعيفة فهم عرضة للتأثر بأسوء الناس، فالطفل في نظر "علم النفس" يتأثر بمن هم أكبر منه سنا، و يحاول تقليدهم ومحاكاة أفعالهم، لأنّه في مرحلة لا يستطيع أن يميز فيها الضار من النافع.

---

[1]. محمد ديب، ثلاثية محمد ديب، الدار الكبيرة، تر: سامي الدروبي ، ص 30.

[2]. أم الخير جبور، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، ص 355.

[3]. محمد ديب، ثلاثية محمد ديب، الدار الكبيرة، تر: سامي الدروبي، ص 21.

[4]. المصدر نفسه، ص 22.

وتوالت المعارك بين الأطفال وحملوا الحجارة بدل الدمى «حتى إذا التقت فئة منهم بفئة دارت رح ى المعركة بينهم كالمسعورين، وكان ينتهي ذلك بتفجر الدم في أكثر الأحيان، كان هناك من ينتهي بهم الأمر إلى تلقي لطم ة حصى على الوجه أو على الجمجمة »[1] فالكبار إذن يعلنون الحرب والصغار يلعبونها، فهم يقلدون من ي عدّونهم قدوة لهم في الحياة.

لقد أصبح هاجس الخوف من الحرب يطارد الكبار والصغار على حد سواء فها هو عمر في مشهد آخر يظهر خوفه منها، وذلك عند سماعه لصفارة الإن ذار وهي تطلق زئيرها المدوي في شوارع المدينة «تذكر في لحظة واحدة الإحساس الغريب الذي سرى فيه حين انطلقت صفارة الإن ذار أول مرة، لكأن صفعة أو ريحا قوية هبت عندئذ على حين غرة، فإذا هو يرى نفسه في أسفل السلم، وقد أخذ قلبه يخفق خفقانا قويا، واندفع أخيرا في الشارع وجعل يجري، وقد استبد به خوف شديد (...) ووصل عمر إلى دار سبيطار ودخل مسرعا، فلما صار أمام أمه استلقى بوجهه على الأرض، واستطاع أخيرا أن يجهش باكيا»[2].

هكذا إذن صور لنا "محمد ديب" الحرب، ومدى انعكاسها على نفسية هذا الطفل الذي يمثل جل أطفال الجزائر، فجميع الأطفال إذن يحسون بما أحسه "عمر"، وكلهم يصابون بأزمات نفسية نتيجة لحالة الحصار المعلنة عليهم.

وتشكل صورة "عمر" في هذه الرواية حالة البراءة والوداعة التي تميز مرحلة الطفولة، بحيث يجد هذا الأخير نفسه موضع تساؤلات كثيرة بخصوص واقعه الدامي، واقع يشاهد أحداثه كل يوم ويعيشها كل لحظة سواء تعلق الأمر بحياته في الدار الكبيرة أم في الشارع أم في المدرسة، فكل هذه الأماكن هي مسارح لمشاهد بؤس حية تصور قمة المعاناة الحقيقية للأفراد في كنف الظلم والاستبداد، معاناة لطالما كانت المحاولات كثيرة لتغييرها، محاولات لم تكن لصيقة بالكبار فحسب بل امتدت إلى الصغار أيضا، حتى ولو كانت تلك المحاولات مجرد أحلام عابرة، وذلك أضعف الإيمان، فعمر يحلم بالتغيير يحلم بأن يدرس ويتعلم أشياء كثيرة ويحصل على مال وفير، وفي مقابل ذلك رأى أن دوام الحال من المحال وأن وضعه البائس لا بد أن تغيره قوة هائلة هي قوة الشعب بنضاله وكفاحه، وبإصراره على أن تكون الحرية والكرامة من نصيبه . لقد تراصت هذه الأفكار في ذهن "عمر" واجتمعت عند سماعه لكلام "حميد سراج" الذي تأثر به أيما تأثر، حتى إنه كان مواظبا على حضور جلساته السرية مع رفاقه من المناضلين السياسيين ؛ لقد كان "حميد سراج" يشرح لزملائه الحياة كما هي، و يفسر لهم واقعهم الذي هو بحاجة إلى التغيير، فحان الوقت لكي ينتهي زمن الظلم وينقشع هذا الظلام الذي عتم حياة الجزائريين، وهنا يبرز

[1]. محمد ديب، ثلاثية محمد ديب، الدار الكبيرة، تر: سامي الدروبي، ص 22.

[2]. المصدر نفسه، ص ن.

لنا "محمد ديب" مدى اهتمام الطفل "عمر" بما يجري في عالمه، وذلك عند سماعه لخطبة "حميد سراج" «يقول المستوطنون.. إن سكان البلاد لا يعملون إلا إذا ماتوا جوعا، فمتى ملكوا ما يسدون به جوع يوم واحد، حملهم كسلهم على ترك العمل، ولكن الحق أن الفلاحين إنما يعملون حتى الآن من أجل هؤلاء المستوطنين، إن هؤلاء المستوطنين يسرقونهم، إنهم يسرقون العمال، ولا يمكن أن تستمر الحياة على هذه الحال»[1].

لقد أحس "عمر" بهذه الكلمات المعبرة عن واقعه، وكأن "حميد سراج" ناب عليه في ترديدها «قال بينه وبين نفسه: صحيح، وفجأة ارتعش، لقد رأى حميد سراج، إن حميد سراج هو الذي يتكلم، إنه هو... هو حميد... هذه الكلمات التي تشرح الواقع، هذه الكلمات التي تعلن ما يعرفه جميع الناس وما يراه جميع الناس، غريب حقا أن يوجد بين رجالنا من يقولها على هذا النحو الهادئ الواضح من غير تردد»[2].

لقد كان "عمر" معجبا بشخصية هذا الثائر الوطني إعجابا شديدا لأنه وضع أصبعه على داء إخوانه وشعبه، ونصح بالدواء الذي كان معلقا خلف كلماته الهادفة إلى التغيير، كلمات لا يريد منها شيئا سوى توعية هذا الشعب الذي يعيش في سبات الشقاء والتعاسة يقول "عمر":«لقد بلغ شقاؤنا من الشدة أنه أصبح يعد هو الحياة الطبيعية لشعبنا لم يكن هناك من يشير إلى هذا الشقاء، من يدل عليه، ويرفع صوته في استنكار، أو هذا ما كنا نظنه على الأقل، وها هم أولاء أناس يتحدثون عنه على مسمع منا، ويضعون عليه الأصبع قائلين هذه هي العلة»[3].

فمحاولة الطفل "عمر" للتغيير كانت بأفكاره الثورية المناهضة للواقع المرير، والتي نقشت في ذهنه نقشا لا تمحيه إلا الحرية، وقد كان يحاول ذلك من أجل إخماد نار الجوع، والفقر، والبؤس، ولهذا نصب نفسه مسؤولا على عائلته بعد أن أصبح يعمل عند حلاق في المدينة «إن أحد أبناء العمة حسنة كان قد وضع عمر عند حلاق من الحلاقين، فكان على عمر أن يذهب إلى الحلاق كل يوم بعد الظهر عند خروجه من المدرسة»[4]، وليس ذلك فقط بل كان يذهب مع أمه التي كانت تعمل في متجر للخياطة من أجل التأكد من «أن المبلغ الذي يدفعه الرجل لأمه هو المبلغ المستحق لها»[5]، فهو هنا يعوض غياب الأب عن المنزل وينصب نفسه مكانه، هذا الطفل الرجل يمتلك حس المبادرة إلى الخير والتمرد على كل شر، ولم يكن "عمر" لوحده يعمل، فحتى أختاه "عيوشة" و"مريم"

---

[1]. محمد ديب، ثلاثية محمد ديب، الدار الكبيرة، تر: سامي الدروبي، ص 75.

[2]. المصدر نفسه، ص ن.

[3]. المصدر نفسه، ص ص 75، 76.

[4]. المصدر نفسه، ص 59.

[5]. المصدر نفسه، ص ن.

كانتا تعملان في مصنع السجادة «لقد ازداد الكلام الآن أن البنتين تعملان منذ شهرين في مصنع للسجاد، أصبحت"عيوشة" تحمل إلى البيت أجر الأسبوع، وكذلك مريم...كانت البنت ان تضعان المال الذي تجيئان به في يد الأم، وكانتا تقترحان عليها ما يمكن شراؤه من أشياء (...) وكان عمر يصغي إلى كلامهن منصتا ويقول بينه وبين نفسه، ليتنا نستطيع أن نحصل على مزيد من الخبز، على خبز كثير»

فالاحتياج والحرمان دفع ا بالأطفال إلى العمل، فهم يجهدون أنفسهم من أجل العيش في كرامة وتجنب كابوس التسول، فعزة النفس هاجرت لتعيش مع هذه الكائنات الضعيفة، فهم نموذج لأطفال الجزائر الذي ن رمى بهم الجوع في هذه المعامل.

والملاحظ في هذه الرواية "الدار الكبيرة" تصوير الطفل من جميع النواحي فهي رواية الطفولة لأنها رصدت تحركات الطفل"عمر"وتتبعت أقواله وأفعاله، وما يدور من حوله، وكانت خلاصتها أن هذا الطفل أشبه بمن يعيش في سجن، فالطفل "عمر" شبه عيشه في مدينة تلمسان بالسجن سواء في المدرسة أو خارجها«ويزداد هذا الشعور حدة لديه في دار سبيطار حيث تقييم أسرته،تلك الدار الكبير البائسة التي تعج دائما بالضجيج والفوضى والخصومات التي لا تنتهي بين الجيران، وهي خصوصيات تعود أساسا إلى كثرة الأنفس التي تضمها الدار وإلى مصاعب العيش التي يعاني منها كل ساكنيها،البطالة، والجوع، والفقر،والمرض وكل أشكال البؤس، وهو ما ينعكس على ساكنيها، ويجعل أعصابهم متوترة وصدورهم ضيقة، ونفوسهم متحفزة لرد الفعل العنيف»[1].

غير أن "عمر" ومع كل هذا وجد في "زهور" جارته متنفسا لكل آلامه فهي من أيق ظ فيه ذلك الحس الذكوري، وتلك الرغبة الغريزية التي نمسها في هذا الطفل الذي انتقل به القطار إلى محطة المراهقة، حيث كانت "زهور" تناديه كلما شعرت بحاجتها إليه «عمر تعال، أرجوك، وكررت نداءها ثلاث مرات، فمضى إليها في آخر مرة، اقتربت منه إنه يحس بدفء جسمها ينفذ فيه، وقد وقفت أمامه، وفجأة ضربته بركبتها ضربة قوية على حالبه، فإذا هو يصرخ صرخة صغيرة، ويرتمي على الأرض ناشجا منتحبا. مالت عليه زهور، وكممت فمه بيدها.. سكن عمر، وها هي يد الفتاة تنزلق على جسمه في سهولة ويسر (...) كان الصبي يحس إحساسا خفيا بأنه مشدود إلى هذا الجسد، جسد المرأة، وقد استسلم»[2].

[1]. أحمد منور، أزمة الهوية في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية، ص 392.

[2]. محمد ديب، ثلاثية محمد ديب، الدار الكبيرة، تر: سامي الدروبي، ص 52.

فهذا المشهد يطلعنا على حالة اليق ظة الجنسية لكل من "زهور" و"عمر"، حيث بدأ الحب يلقي بأشعته الجميلة عليهما، فأصبح "عمر" يخلو إلى زهور في أحيان كثيرة بعدما اكتشف هذا العالم الذي أنس فيه المتعة والهدوء.

إن كل هذه الأحداث التي وقعت في الرواية تعكس أجواء المدينة –مدينة تلمسان– فهي ترسم صورة أطفال المدينة المحظوظين على الأقل في حصولهم على حق التعليم في المدارس الفرنسية، بخلاف نظرائهم في الأرياف والمداشر الذين كانوا يتلقون تعليمهم في الكتاتيب والجوامع، بل و هناك من أطفال الريف من لم يسعفه الحظ في ولوج باب الجوامع أصلا.

المبحث الثالث: صورة الطفل في رواية الحريق (أطفال الريف)

أولا: ملخص رواية الحريق

تصور لنا هذه الرواية الطفل عمر في ريف "بني بوبلان "حين اصطحبته "زهور" معها لزيارة أختها الكبرى المتزوجة هناك، وتبعد هذه القرية بضعة كيلومترات عن مدينة "تلمسان"، وفي هذه القرية لم يعد "عمر "يحس بجو السجن الذي ألفه في "دار سبيطار"، لأنه ذاق طعم الحرية في ذلك الفضاء الواسع، لكنها مع ذلك تبقى حرية ناقصة، فهي أشبه ما تكون بحرية المنفى، لأنها كانت حرية مسيجة بالفقر، ومطبوعة بطابع البؤس والحرمان الذي كان يطل من عيون أطفال الفلاحين.

ولما كانت رواية "الدار الكبيرة " تعالج مشاكل سكان مدينة تلمسان فإن رواية الحريق تتناول أزمات الفلاحين، وسكان قرية "بني بوبلان" الريفية مع المستعمرين والمعمرين الذين استنزفوا جهدهم وصادروا أراضيهم وجعلوهم أجراء فيها.

وبحكم ولادة " عمر "ونشأته في المدينة فإنه كان يجهل كل شيء عن حياة الريف وعن تلك الأرض، إلى أن قابل "كومندار" الذي عرفه بها وكشف له أقنعه هذه الحياة وما كان يجهله عنها، تحدث له عن أرض "بني بوبلان "وعن أهلها الفقراء، وعن المستوطنين الذين ملكوا البلاد ويريدون بعد ذلك أن يملكوا رقاب العباد وعن نساء هاته القرية اللائي أذبلت الشمس الحارقة والأعمال الشاقة التي يقمن بها جمالهن، كما تحدث له عن البطالة التي يعاني منها الفلاحين، إن "كومندار" ورغم رصده لهذه الحياة القاسية التي يعيشها الفلاح في أرضه، إلا أنه استشعر بصيص أمل يخفي آلمه ومعاناته، أمل في تغيير الأوضاع واسترداد الحرية من زمنها الماضي، كان له أمل أنه سيأتي يوم ويثور فيه الفلاح على المستغلين المستدمرين.

هكذا إذن رسم لنا محمد ديب خط هذه الرواية، فمعظمها يدور في شكل حوار بين "عمر" و"كومندار"، هذا الرجل الذي اكتسب اسمه من خدمته الطويلة في الجيش الفرنسي، وكذا مشاركته في الحرب العالمية الثانية.

وعلى الرغم مما كان في حديث "كومندار" من ألغاز وعدم الوضوح إلا أن "عمر "ومع ذلك كان يفهم ذلك الكلام ويتجاوب معه، ويتابعه بلذة وبإعجاب كبيرين، وكأنه وجد في كلام "كومندار" ما كان يكتمه هو أو إن صح التعبير ما لم يستطيع أن يخرجه من صدره.

وفي "بني بوبلان "تمكن عمر من أن يفهم معنى "الوطن" بشكل صحيح، ومختلف تماما عما كان قد تعلمه في المدرسة الفرنسية التي لا تعلم طلابها إلا الكذب، وفيها أيضا اكتشف أن الجزائر بشعبها وأرضها وفلاحيها تمثل

الوطن، ولا يوجد لفرنسا أي مكان في أراضي الفلاحين الطاهرة كما استطاع أن يفهم معنى الشعب، ويفهم معاني أخرى مثل وجود أغلبية مضطهده وفقيرة تسيطر عليها أيادي أجنبية حقيرة تستأثر بخيرات هذا الشعب وما تجود به أراضيهم، عرف ذلك على المباشر عند ملاحظته للفلاحين ومشاهدهم اليومية البائسة، وشكاويهم التي حفظها الحجر والشجر، واجتماعاتهم على طاولة الهموم والمآسي، لقد استطاع "عمر" أن يعرف ذلك من هيئتهم المزرية، ويضاف إلى هذا كله تلك العمليات الذهنية التي تجري في ذهنه ولا شعوره، وتتفاعل مع الخبرات السابقة، وما يعرفه عن حياة أهل مدينة "تلمسان" وخاصة عن نشاط "حميد سراج"الذي عاود ظهوره في رواية "الحريق"، واجتماعاته المتكررة مع الفلاحين والمزارعين، وإزداد تأثر "عمر" به، فأصبح أكثر تعلقا به وبأمثاله، حيث إنه معجب أشد الإعجاب بالأبطال والرجال الأفداء الذين يضحون بالنفس والنفيس من أجل إخماد نار الفقر والاستعمار والاستغلال وإشعال نار الثورة بحثا عن الإنتصار، ومن أمثال ذلك "كومندار" الذي كان خلاصة ما تعلمه منه، أنه يجب تحطيم الظلم ودفنه[1].

ثانيا: تجليات صورة الطفل في رواية الحريق

ترصد رواية الحريق جزء هاما من حياة الجزائريين، ولنقل حياة الفلاحين الجزائريين القاطنين بريف "بني بوبلان"، وعلى عكس الرواية الأولى التي صورت حياة مدينة "تلمسان" بكل مشاكلها وآهاتها وآلام سكانها، ها هو ذا "محمد ديب" يعلن في هذه الرواية حيثيات مشاكل سكان الريف، وإن صح التعبير حياة أطفال الريف كون هذه الثلاثية تناقش موضوع الطفولة ،طفولة الإستعمار البائسة.

لقد نقلت لنا هذه الرواية حوادث صيف 1939م، بين أوساط الفلاحين والمزارعين في الأراضي الفلاحية، وفي البيوت الريفية، إن صوت الفلاحين هو الذي يستأثر على معظم أحداث الرواية، ولا ننسى بذلك صوت الطفل "عمر" الذي يشكل حلقة وصل بين رواية" الدار الكبيرة "وهذه الرواية —الحريق– هذا البطل الذي ارتضاه "محمد ديب "أن يكون شخصية روائية مخضرمة عاشت مكانين لكل منهما خصائصه ومميزاته، عايش أجواء المدينة بين ضفاف شوارعها وأزقتها، وبما يوحي اسمها بوجود حضارة وتقدم وعايش الريف الذي لا ينبؤ إلا بالفقر، والتخلف والبساطة، في سفوحه وجباله، لكن ورغم هذا الإختلاف الحاصل إلا أن الاستعمار الفرنسي وحد هموم الجزائريين ومشاكلهم، فالحياة واحدة ترسم في صفحاتها كل أشكال البؤس، وتحتفظ بين طيات ذكرياتها بكل معاني الإضطهاد والعذاب، هذا العذاب الذي رسمه" محمد ديب" بهذا العمل الروائي في أوجه الفلاحين الذين حرموا من أراضيهم، والأطفال الذين سجنوا في صغرهم.

[1] . محمد ديب ،ثلاثية محمد ديب ،الحريق، تر: سامي الدروبي.

تبدأ هذه الرواية بصورة حية للطفل "عمر"، وهو يتفسح في ريف "بني بوبلان" رفقة جارته "زهور" لقد كان إعجابه بالريف، قد بلغ أوجه حتى لأنه يكاد يطير من شدة شعوره بالحرية، والإنطلاق، هذه الاستقلالية التي لم يألفها في دار السبيطار التي لاطالما كانت سجنا رهيب عليه، لقد كبّله الفقر والعوز والضعف بين تلك الجدران الضيقة، وفي تلك الشوارع التي لا ترحم ضيوفها، ولأجل هذا كان اصطحاب "زهور" ل"عمر" إلى الريف بداية لحياته، لقد أحس بذلك الجمال الداخلي الذي لم يستنشق رائحته الزكية من قبل، لأنّه لم يكن يشم إلا نتانة الأنفس الكثيرة التي يستيقظ عليها كل صباح في "دار السبيطار"، لقد تغير روتين حياة المدينة، « وكانت تنبعث في عمر حياة جديدة، وكانت دارالسبيطار تبدو له في هذه اللحظة أشبه بسجن رهيب »[1].

«كان يقفز ويرقص، وكان ضحكه ينفجر صاخبا»[2].

فصورة "دار السبيطار" في ذهن هذا الصبي توحي بالسجن، أما صورة الريف فلا تعكس سوى الحرية ولا توحي إلا بالانطلاق والتجديد، لقد رسمه الروائي "محمد ديب "في صورة زهرة ذابلة أحيتها أجواء الريف « لم يمسح عمر اللعاب الذي يخضل خديه، إنه أشبه بزهرة طرية تتفتح على جلده وينعشها هواء المساء »[3] لقد ردت الحياة لهذَّا الطفل بعد أن اقتلعتها سموم المدينة، وها هو "عمر" يشبع غريزته في اللعب والتفسح والأكل، فلم تواجهه كما في "درا سبيطار" مشكلة الجوع، لأنه يسكن عند أخت زهور وزوجها "قره علي"، فهذا الرجل ميسور الحال إضافة إلى أنّه عقيم ليس له أولاد يتقاسمون معه الأكل، فكان "عمر" يتناول الطعام بانتظام وفي كل وقت.

لم يكن "عمر" يعرف عن هذه الأرض إلا قليلا بحكم ولادته في المدينة لكنه وجد رفيقا يدله عليها ويعرفه بها «هذه الحياة، هذه الأرض (...) كان عمر لا يعرفها إلا قليلا، وذلك منذ كشف له عنها ذلك الرجل الذي يسمى كومندار، وإلى هذا الرجل انصرف ذهن الصبي حين وصل هذه المرة متسائلا عما حل به ».[4]

لقد كان "كومندار" رفيق له، ولنقل أستاذه، فعلى يده تلقي دروس عن الريف وأجوائه وعن العالم من حوله، لقد أفاده بدروس عن الحياة بطريقة ذكية فيها من الحكمة والرصانة ما يكفي لأن ينفتح ذهن الصبي وقلبه على هذه الحياة« أدهشت عمر أن تكون الحياة جميلة بمثل هذه السهولة، وكان يحس هذه الدهشة في كل صباح يطلع على بني بوبلان الأعلى، إن قلبه يتفتح لأمواج الحياة التي تتدفق على الريف» [5].

---

[1] .محمد ديب، ثلاثية محمد ديب، رواية الحريق، تر: سامي الدروبي، ص122.

[2] . المصدر نفسه، ص ن.

[3]. المصدر نفسه، ص ن.

[4]. المصدر نفسه، ص123.

[5]. المصدر نفسه، ص118.

إن الريف بحقوله وأنهاره وفراشاته ووديانه لم ينس"عمر" في حياته القديمة بل كان كابوس "دار السبيطار" يلاحقه من حين لآخر« وقد تذكر عمر دار السبيطار فتخيلها قاسية شريرة على عهده بها، إنها ترتفع حوله فجأة في هذه الحقول، وتأخذ تبحث عنه بكل ما فيها من أيد ممدودة، إن الأرواح الخبيثة التي تسكن الدار الكبيرة تحاصره من جميع الجهات، وترسل إلى قلبه نفثاتها المسمومة، دام ذلك لحظة قصيرة، لحظة تراءى له كل شيء في أثنائها أسود قاتما »[1].

وفي هذا الريف كان "لعمر"أن يلتقي بجمع من الأطفال يدورون في حلقة الجهل والشقاء، لقد لاحظ تلك الفجوة الموجودة بينه كونه يمثل أطفال المدينة، وبينهم فهم يمثلون حياة الريف أحسن تمثيل سواء كان ذلك بأغانيهم أوبألعابهم وحتى بطريقة تفكيرهم «لقد التقى عمر هنالك بأطفال أشقى منه،أطفال كأنهم الجراد من فرط هزالهم ونحولهم، إن ملابسهم لا تعدو أن تكون خرقا مجمعة أما أقدامهم فتحميها نعال من جلود الشياه مربوطة بحبال من الحلفاء (...)إن ما يلوح فيهم من جد وصرامة قد بدا لعمر شيئا غريبا عجيبا ألعابهم ليست هي الألعاب المألوفة عند أطفال تلمسان، الحيوانات هي رفاقهم لا رفاق لهم سواها، وهم مغلقون يحسنون الصمت ويحتقرون كل ما ليس من الريف » [2].

لقد كانت حياة أطفال الريف إذن مغايرة تماما لحياة أطفال المدينة وهذا الاختلاف ناجم على اختلاف البيئتين والثقافتين، فهم« يختلفون عن عمر في أن أحاديثهم تشتمل على تعبيرات ولهجة لا تلاحظ على أطفال المدن في مثل هذه السن »[3]، وكل هذا أدهش" عمر "إنه يراهم كبروا قبل أوانهم كونهم اتخذوا الصرامة والاندفاع وسيلة لهم في الحياة« إنهم ليرعبونه بهذا الاندفاع العارم الذي يظهر فيهم عند ملاحقة هدف من الأهداف: قتل الطيور أو قيادة القطعان أو تحدي الأوروبيين، وقد اكتشف بين هؤلاء الصبية من أبناء الفلاحين رفاقا له لم يمانعوا في قبوله بينهم البتة »[4].

غير أن هؤلاء الصبية فُوجِئُوا بحديث عمر الذي تطغى عليه لهجة المدينة، وبالمعلومات التي قدمها لهم، كما استغربوا من حديثه باللغة الفرنسية، هذا وكان "عمر" يلعب مع الأطفال القرويين ألعابا غير تلك التي عهدها في المدينة، فكان في كل مرة يكتشف عن طريق هؤلاء ألعاب جديدة يتسلون بها في أيام بؤسهم « ابتعدوا يثبون بعضهم على ظهور بعض ،وثبة بعد وثبة، لاعبين لعبة "سبت سبوت"،ولكنهم انقطعوا عن اللعب انقطاعا تاما

[1] . محمد ديب، ثلاثية محمد ديب، رواية الحريق، تر: سامي الدروبي ، ص 132.

[2] . المصدر نفسه، ص118..

[3] . المصدر نفسه، ص ن.

[4] . المصدر نفسه ،ص ن.

على حين غرة، إن لقلاقا يسير في أحد الحقول باحثا عن ديدان أو ضفادع فما لبثوا أن انفجروا يصوتون جميعا في آن واحد قالين:

بيقق شق شق شق شق

في البيادر هيا نلعب

ياطاحونة

قمحا وشعيرا أعطيك

يا نحلة ياقيتار! »[1]

لقد كانت هذه صورة "عمر "مع أطفال الريف الذين لم يكن لهم حظا من التعليم والدراسة ، بل كان شغلهم الشاغل ملاحقة الحيوانات ورعايتها، وفي مقابل ذلك يرسم الروائي صورة موجزة عن حياة الريف ويوميات الفلاحين البائسة حيث يقول:«إن حياتهم تنقضي أيام زراعة ورعي لدى المستوطنين الفرنسيين وهي حياة تبلغ من طابع القدم، ويبلغ أصحابها من بساطة العيش درجة تحسبهم معها آتين من قارة منسية، إن الأرض هناك في الأعالي صعبة المراس لا ماء فيها، قاحلة تختنق ظمأ، ولا تكاد تستطيع سكة المحراث القديم أن تخزها » [2]. لقد استطاع محمد ديب أن يجمع بين صور الأطفال والفلاحين والمناضلين في ألبوم رواياته الثلاث.

وفي صورة أخرى يظهر الروائي رجولة وحكمة "عمر" التي قد لا تتوفر في إنسان كبير حيث أنه رفض أن يقتحم مع الصبية بساتين المستوطنين «أما ثمار الكرز الرائعة التي كانت تنبؤ بجملها أغصان الأشجار في بساتين المستوطنين ذات الأسيجة، فقد أثارت شهوة الصبيان وأغرتهم بها، فاقترح بعضهم أن يتجاوزوا الأسيجة، ولكن عمر اعترض على ذلك، قال أنه لا يسرق، ويريد ألاّ يسرق في يوم من الأيام،وأكثر من ذلك أن هذه البساتين للأوروبيين، وهو يحب أن يستطيع النظر إلى هؤلاء الأوروبيين وجها لوجه لا يغض طرفه حين يراهم... كان عمر يحرص على أن يسلك سلوك الرجال وعلى أن يتكلم كما يتكلم الرجال»[3].

وهذا يدل على سلوك "عمر" الأخلاقي، وعفته التي لا يتصورها إنسان فهو يستطيع أن يتقبل الجوع والفقر ولا يتقبل الذل والإهانة، وهو هنا رمز للرجولة بكل معانيها، يفضل أن يواجه عدوه وجها لوجه، رجل لرجل، ولا يحب أن يطعنه من الخلف، ومن بين هذا الجمع من الأطفال وجد "عمر" صديقا يشابهه في تصرفاته

[1] . محمد ديب ، ثلاثية محمد ديب ،الحريق ،تر: سامي الدروبي ، ص133.

[2]. المصدر نفسه، ص ن.

[3]. المصدر نفسه ، ص ن.

اسمه" سعيد"«كان لعمر بين هذا الجمع صديق في مثل سنه اسمه سعيد، إنه صبي أسمر صاحب عبقرية مدهشة في تسلق الأشجار (...)إنه يثب وثبته في مثل لمح البصر كالقرود، وأصحابه من حوله قد تدورت أعينهم من فرط الدهشة كان عمر وسعيد على وفاق في مشربيهما، فما أكثر ما رآهم الناس يظهران في بني بوبلان الهادئة صاخبين ولا يستقران على حال »[1].

ففي الرواية الأولى وجد حالة مشابهة له في الجوع والفقر والحرمان هي حالة "صاحب قميص كاكي"، وفي هذه الرواية وجد من يماثله في اللاستقرار وعدم الثبات الطفل "سعيد"، ولا ننسى بذلك نصفه الآخر في الحب "زهور" هته التي أيقضت فيه نيران المراهقة وشنت عليه حربا في الحب «كان الصبي مثبتا نظراته على "زهور" الواقفة في وسط النبع، وقد شمرت ثوبها وراحت تصب على ساقيها الماء براحة يدها (...)ثم انتصبت واقفة فتهدل شعرها على وجهها شباكا متداخلة،وجمعت أطراف ثوبها كالصرة بين فخذيها والتفتت برأسها إلى ناحية الصبي،كان حب الإطلاع ينهش الصبي نهشا »[2].إن هذه الصورة تعكس تغير الحالة السلوكية عند المراهق خصوصا عندما يبدأ في تجاربه العاطفية فكانت "زهور"دائمة التودد إليه «وفيما كانت الفتاة تقرب يدها على وجه عمر وهي تنوي أن تداعبه، انحنى الصبي في قوة ونشاط، وأمسك بثوبها محاولا أن يرفعه ولو تمزق إربا إربا، فما لبثت زهور أن تشبثت بأطراف الثوب مستميته تريد أن تظل مستترة، ومن أجل أن تعزز مقاومتها طوت جسمها وثنت ركبتيها حتى لامستا صدرها »[3].فما نلاحظه في هذه الرواية هو ازدياد شوق عمر لزهور، واكتشافه لما لم يكتشفه من قبل.

وما نستطيع أن نقوله عن هذه الرواية أن "محمد ديب"بمقدرته الروائية التي فاقت كل شيء استطاع أن يرسم صورة للريف وقاطنيه بل أكثر من ذلك جعل القارئ يعيش هذه الأجواء رفقة الأطفال والفلاحين والمناضلين وجعله عنصر يتحرك في الرواية، ولنقل في الثلاثية بكاملها. «لقد نجح محمد ديب على المستوى الروائي والجمالي وانطلاقا من تبصر بعيد المدى استطاع أن يستشعر بأحداث سيتأكد منها تاريخيا بعد مضي الزمن، كان الإنسان الجزائري بتعاسته وحالة اليأس من عدم وجود حلول فورية لقضية الوطن، أشبه بقنبلة موقوتة»[4].

لقد أتاحت لنا شخصية "عمر" في الرواية التعرف على منطقة "بني بوبلان"، كما أتيح لنا من خلاله أن نتعرف على شخصيات جديدة في الرواية لعل من أهمها "قره على"، "بادعدوش"، "بن أيوب"، "علي بن رباح"

---

[1] . محمد ديب ، ثلاثية محمد ديب ،الحريق ،تر: سامي الدروبي ، ص133.

[2] .المصدر نفسه، ص 196.

[3] . المصدر نفسه، ص197.

[4] . أم الخير جبور، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، دراسة سيسيونقدية، ص 367.

ولا ننسى بذلك الشيخ العجوز "كومندار" هذا الذي يمثل شخصية الإنسان الثوري والنضالي، شخصية الإنسان العارف والمتفائل بالمستقبل الزاهر للجزائر، فما أكثر ما حدثه هذا الأخير عن نفسه وعن الواقع المحيط به، وعن أحلامه ورؤاه وألمه الدفين ولنقل أن "كومندار "هو الناطق باسم قريته لأنه يعي كل شبر من ترابها وكل قلب ينبض فيها «قد لا تكون "بني بوبلان" مكانا رائعا، إن سكان المدن لا يعرفون عنها شيئا، رغم ما اشتهروا به من أنهم علماء بكل شيء، والحق أن علمهم ببني بوبلان أقل من علمهم بما عداها أيضا، وفي أقصى الشمال وفي أدنى الشرق، وفي أي مكان من العالم لا يعرف الناس عن بني بوبلان كبير شيء، من الذي يتكلم عن بني بوبلان؟ لا أحد ذلك أن من يريد أن يتكلم عنها ينبغي له أن يعرفها، وكلما تأملها لاح له أنها مكان يحلو العيش فيه ».[1]

إن أهم شيء في بني بوبلان هو تلك الأراضي الفلاحية وأولئك الفلاحين الذين توهج شقاؤهم وثار بركانهم، وذلك لأن أراضيهم سلبت منهم وأصبحت ملكا في أيادي المستوطنين «ألوف الهكتارات من الأرض كانت تصير ملكا لمستوطن واحد من الفرنسيين (...)وهاهم أولاء الآن يملكون مساحات من الأرض لا تعد ولا تحصى، وسكان بني بوبلان في أثناء ذلك تقطر أجسامهم عرقا ودما من أجل أن يزرعوا قطعة صغيرة من الأرض جيلا بعد جيل».[2]

لقد شكلت شكاوى الفلاحين واجتماعاتهم جزء كبيرا وهاما من الرواية، فنقمتهم على الأوضاع البائسة التي يعيشونها فاقت كل الحدود فقدتحول تدمرهم وشكواهم شيئا بعد شيء إلى عمل مثمر كانت نتيجته اضرابات متكررة فها هو "حميد سراج" يشد أزرهم ويفتح أعينهم على طرق الخلاص وسبل التحرر، فكان في كل مرة يتردد عليهم ليعقد اجتماعات سرية معهم وهنا بدأ التمهيد والتنظيم للثورة «لقد لاحظ قره حركات الفلاحين في المنطقة، ولاحظ الاجتماعات التي كانوا يعقدونها، ولم يخطئ ظنه في حميد سراج الذي كان يراه يتردد على الفلاحين أحيانا كثيرة إن البلد كله يتهامس في السر »[3] لقد حظي "حميد سراج "بحب الفلاحين وتقديرهم له، لأنه يقوم بعمل مقدس في سبيل تحرير بلاده «إننا نحن أبناء القرى، نقدر الرجال بعلمهم وعقلهم فإذا كان من أجل العلم والعقل فأهلا به وسهلا، سنظل دائما في حاجة إلى رجال من أمثاله إلى جانبنا »[4] ولم يحظ "حميد سراج "بحب الفلاحين فحسب بل له نصيب من حب الأطفال، وكان لهم هم أيضا نصيب من حبه حيث خصص الروائي الجزء الثاني في رواية الحريق للحديث عن الأطفال على فم "حميد سراج"، حيث دافع عليهم دفاعا

[1] . محمد ديب، ثلاثية محمد ديب ، الحريق، تر: سامي الدروبي، ص ص 135،136.

[2] . المصدر نفسه، ص ص 138، 139.

[3]. المصدر نفسه، ص181.

[4]. المصدر نفسه،ص167 .

مستميتا وعن حقوقهم التي هضمت من طرف المغتصب الفرنسي وتجلى ذلك في تشريدهم وإجهادهم، وضربهم وقمعهم، فسرعان ما يتذكر حميد سراج صورة الطفل "عمر" وبقية الأطفال في مشاهد تخفي وراءها الكثير من الألم، لقد وجد ما ينطبق على حالته في هذا الصبي خصوصا عندما عذبته الشرطة كونه ناشط سياسي «لقد عذبوه بينما كان مغشيا عليه فتح عينيه، ونظر إلى حالة زنزانة مظلمة، كان يحس رغم يقظته من النوم أن هناك طبقات مجاورة من الفكر الذي أخذ ينبجس في داخله... هذه الطبقات وحدها كانت تحتفظ بذكرى التعذيب (...) وضع يده على ظهره فأردك أنه عريان حتى الخصرين، وانقضت لحظة، فإذا بصورة عمر تخطر أمام عينيه.لماذا يتذكر عمر هنا؟ إنه ليس في حالة تمكنه من إبقاء هذا السؤال على نفسه »[1] لقد تذكره لأنه وجد فيه ما يجسد صورة لحالته أثناء التعذيب، إنه تذكر" عمر" لأن هذا الطفل أيضا يعيش في عذاب نفسي وليس جسمي، عذاب سليط فتك به وبأمثاله، ورمي بهم في الشوارع.

فصورة الطفل "عمر" تتبادر في ذهن "حميد سراج" في كل خطوة يقدم عليها فها هو هذا الأخير فارا من التعذيب باحثا عن مأوى «كان حميد سراج كالأعمى وقد احترقت رئتاه، واحترق حلقه من الركض (...) وعادت صورة عمر مرة أخرى كان حميد سراج راجعا إلى دار سبيطار حين هوى رأس الصبي على بطنه، كان عمر يجري مسرعا كماعز، هاربا من البيت »[2].إن الحب بين هذين الإثنين كان متبادلا إن هيستيرية غرامية تشدهما معا إلى الثورة من أجل تحرير الجزائر، وكلاهما يمثل رمزا، فحميد سراج يمثل رمزا لليقظة والفطنة النضالية، ويجسد الوقت الراهن الوقت الذي يندر بالثورة، والتحسب لاندلاعها، أما عمر رمز للمستقبل رمز للحرية والتفاؤل بغد زاهر.

وعن طريق "حميد سراج" أطلعنا "محمد ديب "عن أوضاع وحيثيات الطفل الجزائري الذي كان يجوب الشوارع باحثا عن قوت يومه، حتى ولو استدعى به الأمر مسح أحدية الفرنسيين مقابل تحمل ركاتهم وضرباتهم القاسية «رأى حميد رؤية واضحة في هذه المرة أن هؤلاء الأشخاص الثلاثة يتقاذفون الشيء الذي بدا له طفلا، كما يتقادف اللاعبون كرة من الكرات، وكان الطفل ينجر على الأرض، وهو يكاد يعجز حتى على الأنين... فاستطاع حميد أن يرى الصبي إنه ماسح أحدية أو حمال، واحد من أولئك الذين يراهم المرء راكضين في شوارع مدينة الجزائر أعداد غفيرة»[3].

إن مساهمة "حميد سراج "كبيرة في التنظيم للثورة بلغت أوجها وتجلى في إضرابات الفلاحين المتكررة التي كانت إرهاصا بالثورة فبشائر المقاومة تبدت في الأفق فكان إعلان الحريق، لقد أضرمت النار في أكواخ الفلاحين

[1]. محمد ديب ، ثلاثية محمد ديب ،الحريق ، تر: سامي الدروبي، ص 210.

[2] . المصدر نفسه، ص ن.

[3] . المصدر نفسه، ص 211.

الذين يعملون في المزارع الفرنسية، إلا أن هذا الحريق الذي أريد به أن يكون ردعا وزجرا وقضاء على التمرد لم يكن في حقيقته إلا بداية لنار أكبر منه هي نار الثورة «لقد شب حريق، ولن ينطفئ هذا الحريق في يوم من الأيام، سيظل هذا الحرق يزحف في عماية، خفيا مستترا، ولن ينقطع لهيبة الدامي إلا بعد أن يغرق البلاد كلها بلألائه» [1].

فرواية الحريق إذن هي بركان على وشك الثورة، وخلاصته أن المقاومة بدأت، حيث يبدو الحريق الكبير المشتعل داخل المكان وداخل الذات الجزائرية المهمشة من خلال صور الظلم والثورة التي كانت وشيكة الوقوع، والتي عجلت بها حركة الوعي الشديد الممتدة خطوطها في الأماكن الجزائرية المتوهجة بالبؤس وقسوة الحياة.

وفي الفصول الأخيرة من الرواية رجع بنا محمد ديب إلى أجواء مدينة تلمسان، إن بؤس أسرة عمر آخذ في الإزدياد، وها هو شبح الجوع يلاحق عمر من جديد « وكان عمر يقضي أيامه متجولا في أرجاء المدينة، هي أيام جوفاء ملأى في آن واحد، وهي أيام طويلة على كل حال، أيام ساطعة حارة تحتل مركزها تلك المشكلة القديمة، مشكلة الخبز ..يمكن أن يعبر عنه على هذا النحو: أن جائع دائما لم أذق طعاما أسكت به جوعي ».[2]

لقد أخفى محمد ديب وراء هذه الكلمات ألم كبير، ألم يحس به الأطفال إذا افتقدوا الخبز، حتى أصبح هذا الإحساس يشكل مشكلة نفسية هي الخوف من الجوع« وكان السؤال الذي يلقيه على نفسه بغير هوادة هو أتراني آكل بعد قليل؟ أتراني آكل غدا؟ وكان لا يستطيع طبعا أن يجيب عن هذا السؤال، إنه ليصعب على المرء أن يتصور بخياله الشعور الذي كان يولده في نفسه هذا الشك الذي يتجدد إلى غير نهاية، ويبدو باقيا لا يزول، أية معجزة كان يمكن أن تنقد عمر»[3].

لقد عاودت كل مشاكل مدينة تلمسان في الظهور، وهاهو ألم "عيني" يزداد يوما بعد يوم حتى لأنها اضطرت إلى توقيف "عمر" من المدرسة التي لاطالما عشقها هذا الطفل حتى النخاع، ولقد حرم الآن من كل شيء إلا حياته فهي معلقة بحبال البؤس والضنك «دعنا أخيرا من هذه المدرسة !لقد ضقت بها درعا . أتراك تأمل أن تصبح وزيرا»[4].كان هذا حديث الأم"عيني" مع "عمر" ، لقد اضطر الصبي لترك مقعده في الدراسة و خوض ميدان العمل كحمال في الأسواق التي يتردد عليها الفرنسيين « ورأى عمر رجلا يقترب منه إن الرجل أوروبي

[1] . محمد ديب، ثلاثية محمد ديب ،الحريق ، تر: سامي الدروبي، ص ص228، 229.

[2]. المصدر نفسه، 241.

[3] . المصدر نفسه،ص ن.

[4] .المصدر نفسه، ص ن.

يصحبه صبي صغير دهش عمر حين رأى هذا الفرنسي وابنه يقفان أمامه، ثم شعر بشيء من الخوف، وداخل نفسه شيء من الخشية، فأراد أن يقوم ويمضي ولكن الرجل سأله أن يصحبه إلى السوق من أجل أن يحمل له بعض المتاع»[1].

إن عمر غير راض تمام عما يقوم به لقد أحس بحزن شديد عندما ناداه الفرنسي ليحمل له هذه الأغراض، إنه لم يألف هذا العمل الدنيء لولا ظروفه القاسية، «فسرعان ما شعر عمر بنار تحرق جسمه حرقا لا يطاق، إن إحساسا بالعار والمذلة يسري فيه سريان التمزق على حين فجأة... كان عمر قد تعلم الكلام بالفرنسية، وكان في وسعه أن يقول أنه ليس حمالا، أو أنه يجب ألا ينظر الناس إليه نظرتهم إلى حمال »[2]. وفي صورة أخرى يظهر انفعال الغيرة لدى الأطفال الجزائريين تجاه الأطفال الأوروبيين، « إنهم بغريزتهم يحذقون إلى هذه الملابس الجديدة التي يرتديها الأوروبيون ويحدقون إلى أجسامهم النظيفة الصحيحة، ويفرسون في هيئاتهم التي تدل على أنهم أناس لم يعرفوا الجوع، وأنهم يشعرون بسعادة الحياة ويحسون بأنهم في مأمن من الأخطار»[3].

لقد كانت هذه محاولة لمحمد ديب في المقارنة بعين أطفال الجزائر الذين كدر صفوحياتهم الجوع والجهل والحرمان، إنهم يحلمون بالوصول إلى عالم أطفال أوروبا لكن العوزكسر أجنحتهم الملائكية، لقد شبههم محمد ديب بشمعة ينطفئ نورها شيئا فشيئا مع تقدم السنين ومع إزدياد وطأة المستدمرين.

[1]. محمد ديب، ثلاثية محمد ديب ،الحريق ، تر: سامي الدروبي، ص 258

[2]. المصدر نفسه، ص ن.

[3]. المصدر نفسه، ص 257.

المبحث الرابع: صورة الطفل في النول (الحياة العملية لعمر)

أولا: ملخص الرواية

بعد أن صور"محمد ديب" حياة الأسرة البائسة والفقيرة –أسرة عمر– في رواية "الدار الكبيرة" وكيف كانت حياة "عمر" وهو لم يتجاوز سن العاشرة، انتقل مع البطل نفسه في رواية "الحريق" إلى تصوير واقع الفلاحين في الريف، ورصد حياة الأطفال الريفيين البائسة، بعدها جاءت رواية "النول" حيث يعود فيها "عمر" إلى المدينة –مدينة تلمسان– ليصور واقعا آخر و هو واقع العمال. في هذه الرواية يعود بنا المؤلف إذن إلى تلمسان وإلى الدار الكبيرة نفسها التي كانت موضوع الجزء الأول، إلا أنه لا يتوقف عندها إلا لحظات فقط، فواقع هذه الدار لم يتغير؛ فأختا عمر لا تزالان تعملان في المصنع، وأمه تزداد شقاء على شقاء وقد بدأ الهرم يدب إليها، أما "زهور" التي فرض عليها الزواج فرضا فقد عادت إلى بيت أبيها بعد إخفاق زواجها، لقد علم عمر هذه التفاصيل عن "زهور" من أحاديث أخته.

لقد ترك "عمر" المدرسة للأبد، وأمضى شهور الصيف في (بني بوبلان) وهو ذا الآن في تلمسان وقد بلغ الخامسة عشرة من عمره، ولا بدّ له أن يعمل، وأمه "عيني" تسعى إلى ذلك، إنها تبحث له عن عمل، فقد قصدت منزل "ماحي بوعنان" والتمست منه أن يساعد طفلها اليتيم وقد فعل.

بدأ "عمر" يرتاد المعمل (معمل النسيج)، وبين دخوله عالم الشغل في المعمل وخروجه منه في آخر الرواية مطرودا، بعد شجار دامي مع أحد العمال (حمدوش)، يبسط الروائي أمامنا صورة واسعة لحياة العمال في الجزائر ويرصد حياة "عمر" وهو مراهق، فعمال المعمل البؤساء يعملون ليل نهار في أوضاع مزرية ومنهم الأطفال وهذا الاستغلال لهذه الفئة قد ولّد مشاعر النقمة ورغبة في الثورة والتحرر.

لقد نشطت الصناعة بسبب الحرب (الحرب العالمية الثانية) لذلك كثرت المعامل واستقطبت كثيرا من العمال وقد تعرف "عمر" في أحد هذه المعامل التي يعمل بها على كثير من العمال، فاحتك بهم وشاطرهم حياتهم فهذا المعمل كان يضم كل فئات المجتمع "صبيان وكهول وشيوخ"، "المستسلم، المسكين، الثائر، الواعي..."

إن تلك الظروف المزرية وغير الإنسانية في المعمل قد قضت على أحد العمال وهو صبي إنه "زبيش "، وهذا ما حزّ في نفس "عمر" وبعض العمال حيث ولّد وعيهم بواقعهم ومحاولتهم التمرد عليه ورفضهم لمصيرهم المظلم وهؤلاء العمال "عكاشة، حمدوش، حمزة" حيث صاحبهم "عمر" ونشأت بينهم صداقة خلفت في نفس "عمر" أثرا عميقا.

وإلى جانب تصوير حياة العمال وواقعهم في المعامل عمد الكاتب إلى تصوير أجواء شوارع المدينة التي اجتاحتها جموع غفيرة من المتسولين القادمين من الجبال والأرياف، ولم تجد السلطات حلاّ لإبعادهم وطردهم. ويرصد الروائي واقع هؤلاء البشر البائس وكيف يعيشون في فاقة وضنك وحرمان، حيث يجود عليهم الناس بين الحين والآخر بالقليل من القليل و كذلك فعل "عمر".

إن حياة "عمر" المهنية لم تكتمل، فبعد أن كان يعمل في المعمل ويذهب إلى أمه كل أسبوع بتلك الدنانير، أصبح الآن متسكعا في أزقة مدينة تلمسان، فقد طرد من العمل بسبب مشاجرة حادة مع أحد العمال لأن "عمر" لم يتقبل أن يهان؛ ففي أحد الأيام عاد الصبي إلى أمه جريحا مكسور الخاطر، إنه لن يعود بعد اليوم للمعمل.

وأكمل "عمر" حياته متسكعا في أزقة مدينة "تلمسان"، وقد بدأت ملامح الرجولة والبلوغ تجتاحه غصبا عنه، وتنتهي الرواية بدخول القوات الأمريكية إلى الجزائر ويظن "عمر" أنهم الخلاص فيسر بذلك[1].

[1]. محمد ديب، ثلاثية محمد ديب، النول، تر: سامي الدروبي.

ثانيا: تجليات صورة الطفل في رواية النول

رسمت رواية "النول" ، الجزء الثالث من ثلاثية "محمد ديب" ، لوحة فنية لحياة للطفل "عمر" في فترة المراهقة، إذ تجسد صورة لطبيعة العلاقات الاجتماعية ومظاهر الحياة النفسية لهذا الصبي في تلك الفترة الحساسة والفاصلة في تكوين شخصيته واكتمالها، فعمر قد بلغ من العمر خمسة عشر سنة.

مطلع الرواية يتحدث عن مواجهة الأم "عيني" لابنها المراهق الذي ظل يتسكع في الشوارع دون عمل ولا دراسة، فهو يبقى لوقت متأخر خارج البيت وبمجرد أن ولجت قدماه باب الغرفة حتى انتفضت الأم معاتبة صارخة «فلما رأته، نهضت بوثبة واحدة، وأخذت تهز قبضة يدها قائلة:

– ما ابني هذا ابن، بل كلب من كلاب الشوارع.

أين كنت إلى هذه الساعة؟ أين؟ أين؟ قل لي.. هاي هاي.. أم أمزق وجهك أم أمزق وجهي؟ لقد نبت فيك ريش الشر.. أتظن نفسك أصبحت رجلا؟ أتظن أن كل شئ قد أصبح مباحا لك؟ (...) أما * أن تعود إلى البيت في وقت مبكر، وأما* أن ترجع إلى الشارع»[1]. ويقف "عمر" جامدا أمام هذا المشهد لأنه يدرك تماما أنه لا جدوى من المواجهة فأمه امرأة سليطة اللسان حادة الطبع، ورغم أنه قد رفض سلوكها الأخير فإنه لا يريد المواجهة لذلك ظلّ التوتر الناتج عن كبته للغضب في وجه أمه يعكر عليه صفوة ليله، فالأرق حالة نفسية تنتج عن التوتر النفسي سواء كان حزنا أو غضبا ... وهذه الحالة كثيرا ما تتلبس "عمر"« ورقدوا بعد قليل: لا يستطيع أحد أن يقول منذ متى غرقت الحجرة في الظلام الدامس، لقد تخدر عمر ولكن النوم لم يجد إلى جفنيه سبيلا، لا شك أن وقتاطويلا قد انقضى على هذه الحالة» [2]. وظل "عمر" يذكر يومه وما صادفه بل امتد فكره إلى استرجاع شريط حياته، وهكذا يمضي الصبي جل لياليه يرهق نفسه في التفكير وما باليد حيلة سوى ذلك .

*وردت في المتن (أما) والصواب (إما) .

1 .محمد ديب، ثلاثية محمد ديب، النول، تر: سامي الدروبي، ص 277.

2 .المصدر نفسه، ص 278.

لقد تخلى "عمر" عن المدرسة، وكأن المدرسة لم تكن لأمثاله من الجائعين والبؤساء «قالت له عيني منذ أكثر من سنة: تعلم مهنة من المهن، فلن تجديك كتبك نفعا»[1].

لقد طلّق "عمر" الحياة العلمية وتفرغ إلى الحياة العملية، بدأ في بداية الأمر العمل عند أحد البقالين غير أنه أحيل فيما بعد إلى قائمة البطالين بعد غلق السلطات ذاك الدّكان وسجن صاحبه، غير أن أم عمر لم ترض بهذا الوضع بل راحت تبحث لابنها عن عمل يوفر للأسرة ولو شيئا قليلا من الدنانير :«هذا (اليتيم) وهي تمسك بكم عمر الذي ظل واقفا خلفها...»[2]، ليلتحق بعدها "عمر" بالمصنع (مصنع الصوف).

لقد كشفت رواية "النول" ظاهرة استغلال فئة الأطفال ؛ فمن أجل توفير لقمة العيش، كان يدفع ببعض الأطفال الفقراء واليتامى إلى العمل الشاق، دون رحمة أو شفقة في ظروف غير إنسانية يساق هؤلاء مجبرين، حيث يرمى بمجموعات كاملة من الصبية في ورشات حرفية يقع أغلبها في أقبية وكهوف «هبط عمر الدرجات الأخيرة من السلم الذي وقف عليه، فصار في الكهف، إن الرطوبة كرطوبة مناخر الحيوانات تلتصق بوجهه، أحس الصبي باختناق إنه لا يرى شيئا»[3]. إن أماكن عمل الأطفال تفتقد إلى أدنى حقوق الإنسانية من هواء نقي ونظافة الحيز المكاني، بل هي الرطوبة الضاربة في كل الأركان ومنها تنبعث روائح العفونة نتيجة افتقاد عنصر النظافة.

إن كل هذه الظروف تحيط بعمل الأطفال وفوق ما يعانونه من أوضاع مزرية في موقع العمل فإنهم يستعبدون أسوأ استعباد، فهم يقومون بعمل الكبار ، وفي المقابل يتقاضون نصف الأجر فها هو"عمر" و"عيوشة" و"مريم" وبعض الجارات يعايشن هذا الواقع، «إن خطوات نشيطة تفرقع في فناء البيت تحت، لقد عادت "عيوشة" ومريم من العمل مع العائدات من الجارات الصغيرات» [4]، إنه يتم استغلال الأطفال استغلالا فاحشا فهم يقضون اليوم بأكمله في المعامل والمصانع «قال عمر لنفسه: إنهما لم تجيئا بعد. لسبب بسيط هو أن مصنع السجاد لا يطلق سراحهما إلا الساعة السادسة من المساء»[5].

إن أطفال المعامل في أحيان كثيرة كانوا ضحية لتلك الأوضاع المزرية التي تحيط بهم في مكان عملهم كحال "زبيش" الذي قضى حتفه في صمت كأن لم يكن من قبل إنسانا ، لقد أصيب بمرض ناتج عن انعدام معايير

---

[1]. محمد ديب، ثلاثية محمد ديب، النول، تر: سامي الدروبي، ص 278.

[2]. المصدر نفسه، ص 285.

[3]. المصدر نفسه، ص 286.

[4]. المصدر نفسه، ص297.

[5]. المصدر نفسه، ص 295.

الصحة في المعمل «فلما وصل "عمر" إلى القبو علم أن "زبيش" مات ، لقد ذهب مرض التيفوس برفيق عمله في المصنع، صعق عمر، إن "زبيش" قد انقطع عن المجيء منذ أيام فلم يكترث لغيابه أحد» [1].

إن انتقال "عمر" للعمل في المصنع قد وسع دائرة علاقاته الاجتماعية أكثر فهو طفل اجتماعي ، حيث نجده قد تفاعل مع محيطه الجديد في اليوم الأول من التحاقه بمكان العمل «فخرج من الظلام وراء عمر عفريت صغير مشوه، له شعر كأنه الوبر أشعث فشد عمر من كتفه قائلا: تعال، فتبعه عمر (...) ما اسمك؟ (...) عمر وأنت؟ أنا الذي أسألك وليس لك أن تلقي أسئلة» [2]، إن "عمر" طفل فضولي فهو يريد أن يكتشف هذا العالم الجديد الذي دخله وبسرعة ولهفة. ويثمر هذا العالم الجديد انفتاحا إضافيا لوعي "عمر" من خلال النقاشات الحادة التي كان يتبادلها العمال في كثير من المواضيع السياسية والاجتماعية والدينية..

عادة يتميز المراهق بالميل لاستقلالية الذات ورفض التسلط وتقبل الأوامر وهذا هو حال "عمر" «وأضاف زبيش يقول وهو يهتزز على ساقيه العوجاوين: هل فهمت يا مغفل؟ (...) فقبض عمر كفه ودمدم يقول متوعدا بصوت خافت، إياك... حذار...» [3]، فعمر مراهق ناقم على أوضاعه يرفض التسلط والانقياد له ا حسن التمرد «فإذا بالشاب يصرخ ملء حلقه: لا ففرح عمر حين سمع هذا الجواب، إن "شول" لا يخيف إذن جميع العمال» [4].

إن شخصية "عمر" عصبية اندفاعية ترفض الإهانة والاستسلام فهو دائما ما يعيب في نفسه أحوال الشعب المغلوب على أمره وقبوله الهزيمة، صحيح أن "عمر" لم يقدم على أية خطوة تغير واقع هذا الشعب لكنه كثيرا ما يعيب في نفسه ذاك الحس الانهزامي ويتعلق دائما بالأشخاص الذين يحملون ذكرى الشعب في صدورهم. إن هذه الاندفاعية التي يتميز بها "عمر" ساقته إلى جملة من المشاكل في المصنع ، فرغم أنه طفل كتوم قليل الكلام كثير التفكير فإنه لا يستطيع تحمل وقع الإهانات التي قد يتعرض إليها «هل تعرف يا عمر؟ أنك أشبه بفروج صغير باضه المعلم (...) وقف عمر فقال للأحمر وهو يرشقه بنظرة سوداء.. فروج أمك، فدهش حمدوش من الإهانة وأمطره بوابل من الشتائم (...) فحرك الصبي يده بحركة تحد» [5]، إن هذه الأحداث تدل على قوة شخصية "عمر"، صحيح أنه يرفض أن يَظلم أحدا وهو بالمقابل يرفض أن يُظلم.

---

[1]. محمد ديب، ثلاثية محمد ديب، النول، تر: سامي الدروبي، ص 342.

[2]. المصدرنفسه، ص 287.

[3]. المصدر نفسه، ص ن.

[4]. المصدر نفسه، ص 291.

[5]. المصدر نفسه، ص 313.

غير أن "عمر" لم يبق على نفس الحالة -العصبية والاندفاع- فمع عمله في المصنع واندماجه مع العمال ازدادت حكمته وأصبح أكثر عقلانية ، فهو يعرف الآن كيف يتعامل مع الناس ، عليه فقط أن يعامل الناس حسب طبائعهم، «هذا عمر يحل خيوطا متلفة وهو يفكر، فإذا حمدوش يلاحظ صمته، فيقول له ساخرا: -هل غرقت سفنك المحملة بالزعفران؟ فما يجيبه الصبي، وإنما تزيده كلماته اقتناعا بأن أحمر غبي غباوة لا برء منها»[1].

إن لعمر شخصية قوية حرة ترفض أن تهان ، فها هو يسأل "زبيش" بعد أن ضربه "الأحمر" وانطوى على نفسه يبكي ويتوعده سرا في صدره «سأله عمر لماذا يدع لغيره أن يضربه، فلم يجبه الجني الصغير بشئ، واكتفى بأن هز كتفيه»[2]. إن هذه النفس الأبية التي يتميز بها "عمر" هي التي جعلته منبوذا ومرفوضا في المعمل فقد طُرد من المعمل بعد مشاجرة دامية مع أحد العمال الذين فضلوا الخضوع لصاحب المصنع ، غير أن "عمر" يرفض رغيف الخبز الذي يكسبه بهدر الكرامة «فأمسك المعلم بأذن الصبي، فقرصها وهو يتمايل على نفسه ثم جعل يجره إلى أن وصل به إلى أول الدرج (...) قال "ماحي بوعنان" لعمر:

اذهب ولا تريني وجهك في هذا المكان بعد اليوم»[3].

إذن فعمر صاحب شخصية قوية وصاحب مبدأ لا يمكن أبدا أن يتخلى عنه وإن قطع رزقه ، فهكذا عملت "عيني"على تربيته.

إن الطفل اليتيم نتيجة فقدانه لعاطفة الأبوة أو الأمومة يرسم في مخيلته صورة مثالية عن تلك العاطفة ويعمل جاهدا على تقصيها في شخص ما يعوضه ما حرم منه وهذا هو حال "عمر"، فهو عاش يتيم الأب فاقدا لحنانه لذلك نجده يتوسم تلك العاطفة المفقودة في "الأمين"، هذا الكهل الذي لو كان أبو عمر من الأحياء لكان في مثل سنه لذلك يميل إليه "عمر" عاطفيا ويصرح له بمشاعره تجاهه غير أنه لا يجد ضالته فيه «قال له هامسا في أذنيه وهو يضع يده على كتفه... هم يسخرون منك يا الأمين. أما أنا والله ما فعلت ذلك قط... فرفع الحائك حاجبيه وكال الصبي بطرف عينه (...) وهز الأمين كتفه التي وضع عليها الصبي يده وطرده»[4].

كما يميل المرا هق إلى مصاحبة من هم أكبر منه سنا وهذا الذي فعله "عمر" عند مصاحبته لكل من (عكاشة حمدوش، حمزة) ، غير أن "عمر" لم يصاحب إلا من لديه حس ثوري ذلك لأن هـ يمتلك نفس الحس، فخطاب كل من (عكاشة وحمدوش) يقترب كثيرا من خطاب "حميد سراج" الذي كان "عمر" مولعا به

---

1. محمد ديب، ثلاثية محمد ديب ، النول، تر: سامي الدروبي، ص 320.
2. المصدر نفسه، ص ن.
3. المصدر نفسه، ص 391.
4. المصدر نفسه، ص 305.

«هذه أول مرة يجيء فيها عمر إلى هذا المقهى كان سروره بوجوده في هذا المكان كسروره بصحبة عكاشة (...) كان عكاشة جالسا قبالة عمر، مديرا ظهره للشارع، ولم يكن في المقهى كثير من الناس جاء المعلم بالقهوة والشاي»[1]، إن مصادقة عمر للكبار قد أكسبته طباعهم فأصبح يقلدهم في كل صغيرة كبيرة وهذا ما يتميز به المراهق «كان عمر قد أخذ يجرب التدخين منذ مدة خُفيَةً، فهو يشتري سيجارتين أو ثلاثا من صغار البائعين وفي جيب سترته الآن واحدة»[2]

هناك حالات نفسية تصيب المراهق خصوصا، إن الصراع النفسي كثيرا ما يُؤثر على نفسية الطفل والمراهق، فعمر يحس بتأنيب الضمير لما آلت إليه حالة أمه؛ إذ ينظرها وهي تكبر وتهرم فيظن في نفسه أنه هو من جرى عليها وليس الزمن. يُوَلّد هذا في داخله صراعا نفسيا مختلطا بعاطفة مكبوتة ، فعمر لا يستطيع أن يبوح لأمه بعاطفته تجاهها، وهذه عقبة أخرى تواجه المراهق "عمر" «أحس عمر فجأة أن هناك شيئا يتربص في الظلمات. شعر من ذلك بقلق وذكره بأمه التي تشم الشقاء في كل شئ (...) أصبح الآن لا يأمل أن يعاوده النوم، وكان قد ارتفع صوت آخر في ظلام الليل يقول: لا تخافي يا أمي، أضرع إليك (...) أنا أعرف أن هذا الخوف يطوف طائفة في الليل أحيانا»[3]، إن "عمر" يحس بالذنب لما تعانيه أمه فهو بات يدرك أنه وحده المسؤول على راحتها أو شقائها، فالمراهق أحيانا يصاب بشعور جلد الذات عندما يحاط بالفشل والإحباط «عمر ينظر إلى فرجة الباب الشاحبة وينظر إلى الليل المخيم وراءها، و عيني راقدة تحلم، إن الصبي يستعرض أعماله ويحس أنه مذنب رغم أنفه، أثرت في نفسه شكايات أمه» [4]،غير أن "عمر"أحيانا يحس بقوة تدفعه لتحدي الصعوبات إن نفسه تحدثه بذلك «يجب أن أكافح جميع الصعوبات، مهما يكلف الأمر، ولو أرقت في سبيل ذلك دم ي قال عمر ذلك لنفسه، فألقى هذا الوضوح على أفكاره ضياء ساطعا» [5]، إنّ كل هذا يعكس الصراع الداخلي الذي يعيشه "عمر" بوصفه يتيما فقيرا وفوق هذا يعيش أجواء الحرب، فهو منطوي على ذاته وهذا يخلق في فكره صراعا.

إن الظروف التي عايشها "عمر" جعلته طفلا متقلب المزاج كثير السرحان والشرود الذهني، وهذا دليل على وجود القلق النفسي الناتج عن تراكمات وترسبات نفسية وعن المرور بخبرات مؤلمة في الصغر وهذا الذي يعانيه عمر«إن عمر ما ينفك يشد خيط الصوف دو ن أن تحس يداه المتورمتان الضاربتان إلى لون البنفسج (. ..) إن

1. محمد ديب، ثلاثية محمد ديب ، النول، تر: سامي الدروبي، ص 331.
2. المصدر نفسه، ص 359.
3. المصدر نفسه، ص 289.
4. المصدر نفسه، ص 296.
5. المصدر نفسه، ص 297.

أفكارا حزينة قلقة تخّب في رأسه وإن قشعريرات تجري في فقرات ظهره (...) غاب وعي عمر عن العمل الذي يقوم به، ظل مدة طويلة من الوقت شاردا لا يدري إلا الله فيما كان يفكر»[1].

لقد صورت رواية "النول" جوانب عدة من الحياة الاجتماعية في المدينة –مدينة تلمسان– إذ تحدث فيها الكاتب عن فئة اجتماعية يجدها دخيلة على المدينة وهي فئة المتسولين ، وقد رصد "محمد ديب" هذه الفئة من خلال حوار جرى بين الأم "عيني" وولدها "عمر" «ثم قالت عيني تسأل ابنها: هل رأيت إعلان البلدية؟ هل أعلن عن توزيع الدقيق؟.

– لا لم يعلن إلا عن الزيت والصابون وقد أخذناهما، فإذا فعلوا كما فعلوا في المرة الماضية كان توزيع الدقيق لا يجيء أوانه إلا بعد ثمانية أيام أو تسعة.

– ليتهم يستعجلون.

قالت ذلك مدمدمة، وزفرت زفرة عميقة، ثم أضافت بلهجة ذاهلة:

– الشحاذون يصلون من كل مكان في هذه الأيام.

– لا غرابة في هذا الجو على ما ترين»[2].

لقد أثارت هذه الفئة شفقة "عمر" إنه يدرك تماما ما تعانيه من ضعف وقلة حيلة اليد، إن الفقر الذي تعانيه ليس بمعزل عنه إنه كثيرا ما نام ببطن خاوٍ فكيف له أن لا يدرك معاناتهم «تقدم عمر من أحد هؤلاء المتشردين وهو رجل قصير مدبوغ الوجه، فتردد عنده قليلا، ثم مد إليه الخبز والسمك وهو يسأله هل يريد أن يأخذهما»[3].

إن أطفال هؤلاء المتسولين يتعرضون لأخطار جمة، ويقف "عمر" شاهدا على حادث راحت ضحيته طفلة صغيرة «وقف عمر على أصابع قدميه متطلعا، فرأى المرأة وكائنا صغيرا مقمطا برثت* وسخة راقدا على الأرض، كانت المتسولة واضعة إحدى يديها على فمها، وهي ساكنة لا تتحرك (...) الله يحميك يا ابنتي الصغيرة، لم يحن أجل الموت بعد (...) وظلت تكلم الرضيعة المثلجة مدة طويلة في رقة وبلاهة، لم يستطع "عمر" أن ينتزع نفسه من هذا المشهد إلاّ في عناء، وردد يقول دون أن يعرف السبب الذي يدفعه إلى ذلك... فات

1. محمد ديب، ثلاثية محمد ديب ، النول، تر: سامي الدروبي، ص 308.
2. المصدر نفسه، ص 297.
3. المصدر نفسه، ص 299.

* وردت الكلمة في المتن على النحو التالي (رثت) والصحيح (رثة) .

الأوان، فات الأوان» [1]. لقد لقي كثير من أطفال الشوارع –أطفال المتسولين– مصير هذه الصغيرة ، فقد قضي عليهم بسبب البرد أو الجوع أو المرض. إنها صورة مأساوية أخرى لهذه الفئة التي تدفع الثمن باهضا دائما دون معرفة سبب ذلك، فهي لا تدرك معنى الحياة وما تحمله من مآسي بل لا تدرك معنى وجودها أصلا.

إن كل ما مر به "عمر" من أحزان وآلام وفقر وما شاهده من معاناة أبناء شعبه ومعاشرته للكبار قد خلق لديه وعيا سياسيا واجتماعيا، فعمر نموذج للطفل الواعي بل هو صورة الضمير السياسي الجزائري في حقبة الاستعمار الفرنسي، فهو يعي تماما حقوقه وواجباته على المستوى الشخصي والعام غير أنه لا يدرك كيف يعيد هذه الحقوق من مغتصبها وهذه هي الإشكالية التي كانت مطروحة آنذاك –جدلية الكفاح السياسي والكفاح المسلح– «قال عمر سائلا في تعجب:

– كيف لا تتوقع هذه البلاد من رجالها شيئا؟

فحرك عكاشة يده بإشارة في الهواء وقال:

– كأنها لا تتوقع شيئا...

ثم أضاف بلهجة فيها الحلم كله والأخوة كلها:

... شيئا عظيما.

– لا بد أن هناك أسبابتحملك على هذا الاعتقاد... لا بدّ أن هناك أسبابا تدفعك إلى هذا الكلام...

فقاطعه الحائك يقول:

– أسباب؟ أتظن أن هذا لا يزال له وجود؟

فأجابه عمر:

– ولماذا تعتقد أنه لم يعد له وجود؟»[2].

إن هذا الحوار وغيره يعكس المستوى الفكري لعمر ودرجة وعيه بما يحيط به ،كما يكشف توجهه التحرري الذي يراه الحل الأمثل لقضية الشعب الجزائري . لقد زادت درجة وعيه بعد التقائه بشخصيات تحررية مثل (عكاشة، حمدوش، حمزة) والتي تحمل نفس فكرة " جهد سراج"، فرغم غياب هذا الأخير في رواية "النول" بسبب إلقاء سلطات الاحتلال القبض عليه فإن الأفكار التحررية التي كان يبثها في الشعب لم تمت، فعمر ما زال يؤمن بها بل زاد تعلقا بها بعد مصاحبته لعكاشة و"حمدوش" ، غير أن ذكرى "سراج" ظل ت تراوده كلما رأى الشعب

[1]. محمد ديب، ، ثلاثية محمد ديب، النول، تر: سامي الدروبي، ص ص 393، 394.

[2]. المصدر نفسه ، ص 354.

خائضا في نومه «فكر عمر بعد ذلك في حميد سراج كان صوت الشعب بأسره قد سكت، منذ سجن حميد سراج في معسكر من معسكرات الاعتقال، أصبح المرء لا يرى بعد ذلك إلا جماهير خرساء خائفة، أصبحت هذه الجماهير على حين فجأة تحس بخطر كانت جاهلة به، وازداد حذر الناس» [1].

كثيرا ما سأل "عمر" نفسه لماذا لا يثور الشعب الجزائري على الوضع المزري الذي يحياه، لما لا يطالب بحقوقه، إن هذه الأسئلة التي كانت تعذبه وجد الجواب عنها عند "عكاشة " هذا العامل الواعي قال يوما لعمر: «لقد أهين الشعب كثيرا (...) وسيخرج من ذلك أمر رهيب هائل» [2] كان "عمر" يفرح بهذا الكلام لأنه يريد أن يتخلص من آلامه وفقره، وهنا يتضح أن وعي الصبي سابق لسنه وكأنه يجمع بداخله شخصيات عديدة (شخصية طفل، شخصية مناضل سياسي، شخصية الثوري) ، إن هاتين الأخيرتين كانتا تدفعانه دفعا للثورة والرفض ، غير أنه يحمل في داخله شخصية أخرى تتسم بالتردد والخوف وهذا ما جعله يعيش الصراع النفسي ولا يدري سبيل الوصول إلى خلاصه الذي بات لغزا لا يجد له حلّا.

إذن لقد جسدت شخصية "عمر المراهق" التي تتسم بالإقدام والتردد والتحولات السريعة صورة الشعب الجزائري في فترة الاستعمار وماكان يعانيه من قلق وصراع داخلي لفهم الذات ورفض التبعية والتخلص من الاحتلال.ويمكن القول أن صورة عمر في الثلاثية تجسد صورة الشعب الجزائري إبان الاحتلال الفرنسي ،حيث كان الشعب الجزائري تبعا لفرنسا لايعرف ذاته وبدأ يتطور وعيه بعد ذلك تدريجيا تماما كما تشكلت شخصية عمر تدريجيا ،فوعي الشعب الجزائري كان طفولي قبل الثورة ومع قيامها أُعلن عن رشد الشعب الجزائري كما أُعلن عن رشد عمر في أخر جزء من الثلاثية .

[1]. محمد ديب، ، ثلاثية محمد ديب، النول، تر: سامي الدروبي، ص 395.

[2] . المصدر نفسه، ص 349.

خاتمة

خــاتـمـــــة:

من خلال المراحل التي قطعناها في دراسة موضوع "صورة الطفل في الرواية الجزائرية الحديثة" توصلنا إلى جملة من النتائج نحصرها فيما يلي:

– أدب الطفولة أو أدب مرحلة الطفولة: هو أحد الأنواع الأدبية المتجددة في أدب سائر اللغات الإنسانية وهو أداة فنية من أدوات تنشئة الطفولة التي تعد ركيزة المستقبل، إنه يساهم في بناء شخصيتها التي تقوم عليها في الغد شخصية المجتمع الجديد.

– إن لفظ "الطفل"ورد في كثير من آيات الذكر الحكيم سواء باللفظ نفسه أو بألفاظ أخرى تدل عليه كالولد، الصبي... وهذا يدل على مكانة الطفل وقيمته في ديننا الحنيف.

– اختلف الفقهاء وكذلك علماء النفس والاجتماع وحتى مشرعي القوانين الوضعية في تحديد السن الفاصلة بين مرحلة الطفولة ومرحلة البلوغ، وبقي السن قضية جدلية بين مختلف هذه العلوم، فالطفولة هي المرحلة الأولى من عمر الإنسان وتبدأ منذ ما قبل الولادة حتى سن البلوغ الذي هو سن معياري غير محدد.

– قسم علماء النفس فترة الطفولة إلى عدة مراحل بداية من مرحلة ما قبل الولادة، ثم مرحلة الرضاعة، مرحلة الطفولة المبكرة، مرحلة الطفولة المتوسطة، مرحلة الطفولة المتأخرة، وأخيرا مرحلة المراهقة، وكذلك فعل علماء الاجتماع غير أنهم أسقطوا مرحلة ما قبل الولادة.

– يهتم علم النفس بالطفل أيما اهتمام ذلك لأن التنشئة النفسية الصحيحة للطفل تجعل منه فردا سليما نفسيا، وهذا يساهم في بناء مجتمع خال من الآفات الاجتماعية، لذلك ينصح علماء النفس المربّين بتتبع الصحة النفسية للطفل من مرحلة التكوين الجنيني حتى سن المراهقة.

– إن التنشئة الاجتماعية للطفل حسب علماء الاجتماع تبدأ من لحظة ولادته حتى رشده وهذه العملية لا تتم إلا بتضافر جهود مؤسسات المجتمع كلها بدءا بالأسرة مرورا بالحضانة إلى المدرسة وصولا إلى المجتمع ككل، فاكتمال شخصية الطفل بصورتها النهائية تكون نتيجة لتفاعلات بين المجتمع الصغير –الأسرة– والمجتمع الكبير.

– إن حضور موضوع الطفل والطفولة في المخيال الأدبي ليس وليد العصر إذا لاحظنا حضوره في التراث الشعري العربي (الجاهلي والعباسي...)، وقد تم ذلك من خلال عدة محاور منها رثاء الأبناء وأغاني ترقيص الأطفال وكذا التهنئة بالمواليد أو وصف ما تلاقيه هذه الفئة من معاناة في الحروب.

– إن الشعر العربي الحديث والمعاصر لم يخل من نماذج يكون الطفل فيها حاضرا، غير أن الملاحظ هو طغيان حضور الطفولة في الشعر العربي الحديث بعد نكسة حزيران عام 1967م، غير أن شعر الأطفال هو ما تتجلى فيه تيمة الطفل بوفرة.

– تحضر الطفولة أيضا في القصة والرواية العالميتين والعربيتين وكذا في قصص الأطفال، إذ تسعى جميعها إلى إلقاء الضوء على معاناة الطفولة، والظروف الحياتية القاسية التي يحياها الأطفال.

– لقد ارتبط موضوع الطفولة في الأدب بالحرب منذ الجاهلية، حيث كان يصور العرب بطولاتهم في الحروب التي يخوضونها بحضور صورة الطفل في ذلك وكذا تصوير معاناة هذه الفئة. وكذلك فعل الأدباء والشعراء في العصر الحديث والمعاصر حيث يبرز موضوع الطفولة في الساحة الأدبية بعد كل أزمة أمنية أو سياسية.

– إن اهتمام القصة والرواية الجزائرية الحديثة بموضوع الطفل بوصفه محورا رئيسيا لم يتم حسب ما توصلنا إليه إلا بعيد الثورة بقليل، وذلك إما بتخصيص عناوينها بالطفل مباشرة وإما بإدراج عناوين مضللة لا تتعلق بالطفل أو بالطفولة مباشرة، غير أن جوهرها يتحدث عنها .

– يمثل رمز الطفل دلالات عديدة، عبر المستويات الخاصة والعامة للاستخدام الفني في الرواية والقصة، حيث يستخدم رمزا للبراءة، ورمزا للمستقبل ورمزا سياسيا يمثل الثورة وغيرها من الرموز...

– تصور "ثلاثية محمد ديب"واقع الجزائريين أثناء الاستعمار الفرنسي خلال الحرب العالمية الثانية، وما يميّزه من فقر وجهل وظلم واضطهاد، كذا الوعي السياسي الذي شهدته تلك المرحلة والناتج عن الأحداث المفصلية التي كان يشهدها العالم بأسره، كما تصور واقع أطفال الجزائر آنذاك.

– تجسد رواية "الدار الكبيرة"الجزء الأول من الثلاثية صورة أطفال المدينة وما يعانونه من فقر وحرمان ويتم، كما تجسد محاولات فرنسا ربطهم فكريا بها من خلال مدارسها فهم يتعلمون بلغتها، كما صورت الهوة الكبيرة بين أطفال الأغنياء وأطفال الفقراء وهذا يبين الطبقية التي كانت تشهدها الجزائر إبان الاستعمار.

– إن رواية "الحريق" الجزء الثاني من الثلاثية قد رسمت صورة كاملة لأطفال الريف وسكانه، هؤلاء من دون شك هم أكثر شقاوة من أهل المدينة فأطفالهم لم يكن لهم الحظ في التعليم، فنسبة الأمية بين الأطفال والكبار في الريف أكثر منها في المدينة وكذا نسبة الفقر والمعاناة...

– تطرح روايتا "الدار الكبيرة" و"الحريق" الفروق بين أطفال المدينة ونظرائهم في الريف، فأطفال المدينة يتلقون التعليم أما أطفال الريف فلا، ويعمل أطفال المدينة في المصانع والمعامل بينما يعمل أطفال الريف في الحقول

والمزارع، ولعب أطفال الريف مرتبط بالطبيعة (صيد العصافير والحيوانات...) أما أطفال المدينة فلعبهم تميل إلى العنف أكثر (الصراعات بين أطفال الشوارع المختلفة).

– تعكس رواية "النول" الجزء الثالث والأخير من ثلاثية "محمد ديب" ظاهرة عمالة الأطفال "أسبابها ونتائجها" فالفقر والعوز واليتم هي من تدفع الطفل لاقتحام عالم الشغل غصبا عنه، تاركا مقاعد الدراسة التي هي حق من حقوقه حسب القوانين الوضعية والسماوية.

– في الثلاثية –ثلاثية محمد ديب– يظهر الوعي السياسي لعمر الذي يمثل أطفال الجزائر ويمثل الضمير الجمعي السياسي الجزائري، فعمر نجده شديد الإعجاب والتعلق بالمناضل "حميد سراج" وغيره.

– تصور الثلاثية الحياة الاجتماعية والنفسية للجزائريين إبان الاستعمار الفرنسي، فقد كشفت من خلال "عمر" طبيعة العلاقات الاجتماعية بين مختلف فئات المجتمع كما خطت مظاهر الحياة النفسية للجزائريين، هذه المظاهر التي ساهم ظلم الاستعمار ووحشيته في بناء معالمها. وتتجلى هذه المظاهر في عنصرين بارزين هما: "الإقبال والتردد"؛ الإقبال على الثورة والتردد مخافة النتائج أو العواقب.

أما النقطة الأخيرة والتي نراها طاغية على النص الروائي الجزائري الحديث هي أن الطفل في الرواية الجزائرية الحديثة معرض في كثير من الأحيان للعقاب الجسدي، وهو تعبير عن حالة مرضية تتفشى في المجتمع، وأخطر من هذا العقاب الآثار النفسية المترتبة على الإهانة الجسدية للطفل.

وعلى العموم إن صورة الطفل اليتيم والفقير في الرواية الجزائرية الحديثة قد أثارت جوانب نفسية واجتماعية مؤلمة وحزينة، وهي ذريعة قصصية لتعرية الواقع الجزائري البائس

قائمة

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم .

المصادر:

01. إبراهيم مذكور، معجم العلوم الاجتماعية، ط 1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1975م.
02. إبراهيم نصر الله ، الأعمال الشعرية ، د.ط ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،بيروت ، لبنان ، 1999م.
03. أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، تح : عبد المجيد الترحيني، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان ، 1983 م ، ج 04.
04. أحمد رضا حوحو ، التلميذ : غادة أم القرى و قصص أخرى ، ط 2 ، موفم للنشر و التوزيع ، الجزائر، 2000م.
05. أحمد سفطى ، مغامرات الطفل المتمرد ، د.ط ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1985 م
06. أحمد سويلم ، صرخات تحت قبة الاقصى ، د. ط، الهيئة المصريةالعامة للكتاب،القاهرة ، مصر، 2002م.
07. أحمد طيب معاش ، شموع لا تريد الانطفاء ، د.ط ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1990م .
08. أحمد فضل شبلول ، الماء لنا و الورد ، د.ط ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ،مصر ، 2001م.
09. إعتدال رافع ، رحيل البجع ، قصص عربية ، ط 1 ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق سوريا ، 1998 م.
10. أنطوان تشيكوف ، في منزل الأرملة ، قصص ، تر : أبو العيد دودو، ط 1 ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، 2003 م .
11. بائعة الكبريت ، د.ط ، دار البدر للطباعة و النشر و التوزيع ، الجزائر ، دت .
12. بشار بن برد ، الديوان ، تح: محمد الطاهر ابن عاشور، د.ط ، وزارة الثقافة ، الجزائر ، 2007 ، ج 1.
13. الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)، البخلاء، د.ط، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1980م
14. أبو الحسن علي بن محمد التهامي ، الديوان ، تح : محمد بن عبد الرحمن الربيع ،ط 1 ، مكتبة المعارف ، الرياض ،المملكة العربية السعودية ، 1982 م.
15. الخوري رشيد سليم ، ديوان القروي ، ط 1 ، مطبعة صفدي ، سان باولو ، البرازيل 1952 ، ج 1 .
16. رابح خدوسي ، بقرة اليتامى و قصص أخرى ، دط ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق سوريا ، 2001 م .
17. رابح خدوسي ، الطفل الذكي ، د .ط ، دار الحضارة ، الجزائر ، دت .

18. الراغب الأصفهاني الحسين بن محمد ، محاضرات الأدباء و محاورات البلغاء ، ط1 ، دار الأرقم بن أبي الأرقم للنشر و التوزيع ، بيروت ،لبنان ، 1999م .
19. رجب البنا ، ابتسامة صغيرة ، دط ، مكتبة الأسرة ، دب ، 1997 م .
20. رشيد بوجدرة ، الحلزون العنيد ، تر:هشام القروي، ط2 ، المؤسسةالوطنية للاتصال و النشر ، الجزائر ، 2002 م.
21. ابن الرومي ، الديوان ، تح : أحمد حسن بسج، ط3 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،لبنان ، 2002 م ، ج 1.
22. ابن الزيات ، محمد بن عبد الملك بن أبان ، ديوان ابن الزيات ، مخطوط المكتبة الازهرية ، رقم 22 .
23. زهور ونيسي ، لماذا تخاف أمي: على الشاطئ الأخر ، د.ط ، موفم للنشر ، الجزائر 2007م.
24. شاكر خصباك ، حياة قاسية ، مجموعة قصصية ، ط4 ، مركز عبادي للدراسات و النشر ، صنعاء اليمن ، 1996 م.
25. الطاهر وطار ،الدروب : الطعنات ، ط3 ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1981 م.
26. طه حسين ، الأيام ، د.ط ، دار الهدى للنشر و التوزيع ، عين مليلة الجزائر ، دت ،ج1.
27. عبد العزيز بوسفيرات ، البطل الصغير ، دط ، دار هومة للطباعة و النشر الجزائر ، 1996 م
28. أبي عبد الله الحسن بن أحمد الزوزني ، شرح المعلقات السبع الطوال ، ط1 ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت، لبنان ، د.ت.
29. عبد الوهاب البياتي ، ديوان البياتي ، ط4 ، دار العودة ، بيروت ، لبنان ، 1990 ، مج 2.
30. ابن عديم ،كمال الدين عمر بن أحمد ، الدراري في ذكر الذراري،تح: علاء عبد الوهاب محمد ،ط 1 ، دار السلام للنشر و التوزيع ، 1984 م.
31. فاطمة سليم ، نداء المستقبل ، مجموعة قصصية ، دط ، دار بوسلامة للطباعة والنشر ، تونس ، 1978م.
32. فرانسيس هودغس بيرنث ، الحديقة السرية ، تر : نغمت توفيق صناديقي،د.ط ، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا ، 1999 م .
33. أبو القاسم الشابي ، ديوان ابي القاسم الشابي ، ط4 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،لبنان ، 2005 م .
34. لينا الكيلاني ، الحلم و المستقبل ، قصص للأطفال ، د.ط ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ،سوريا ، 1997 م .

35. مجدي وهبة و كمال مهندس ، معجم المصطلحات العربية في اللغة و الأدب ،ط2 مكتبة لبنان ، بيروت ، 1984 م .
36. مجموعة شعراء ، ديوان الشهيد محمد الدرة ، ط1 ، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود للإبداع الشعري ، المملكة العربية السعودية ، 2001 م، ج1 .
37. محمد بن عجال ، و يكبر الصغار في وطني : يوميات رجل نبيل، ط1، مطابع عمار قرفي الجزائر،1992.
38. محمد ديب ، ثلاثية محمد ديب ، الدار الكبيرة ، الحريق ،النول ،دط ، ترجمة سامي الدروبي ،دار الوحدة للطباعة و النشر ، بيروت ، لبنان ، 1980م.
39. محمد منذر لطفي ، القمر يغني للأطفال ، د .ط ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، سوريا ، 1991م.
40. مرزاق بقطاش ، طيور في الظهيرة ، د.ط ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1981 م .
41. ابن منظور (جمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم)، لسان العرب، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005م، مج 6.
42. المهلهل بن ربيعة ، الديوان، تح : أنطوان محسن القوال ،ط1 ، دار الجيل ، بيروت ،لبنان ، 1995م.
43. الموسوعة العربية الميسرة ، ط3 ، المكتبة العصرية ، بيروت لبنان ، 2009 م ، م ج 6.
44. مولود فرعون ، نجل الفقير ،تر:محمد عجينة ،ط4 ، دار سراس للنشر ، تونس ،دت .
45. مولود مسخر ، مغامرات هشام ، د.ط ، الملكية للإعلام و النشر و التوزيع ، الجزائر ، 1992 م .
46. النابغة الذبياني ، الديوان ، ط1 ، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان ، 1991 م.
47. نجيب محفوظ ، المؤلفات الكاملة ، حكايات حارتنا ، ط1 ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ،لبنان ، 1993 م ، مج 4 .
48. نزار قباني ، الأعمال السياسة الكاملة ، ط2 ، منشورات نزار قباني ، بيروت ،لبنان ، 1999 م ، ج 6 .
49. ابن الهبارية ، شعر ابن الهبارية ، جع تح :محمد فائز سنكري طرابيشي ، د. ط، مطابع وزارة الثقافة و إحياء الثرات العربي ، دمشق ، 1997 م

المراجع:

50. أحمد زلط، أدب الأطفال بين كمال الكيلاني ومحمد الهرواي، دط، دار المعارف، مصر، 1994م.
51. أحمد زلط، أدب الطفل العربي ،دراسة معاصرة في التأصيل والتحليل، ط 1، دار هبة النيل للنشر والتوزيع، مصر، 1418 هـ، 1998 م

52. أحمد عبد الله العلي، الطفل والتربية الثقافية، رؤية مستقبلية للقرن الحادي والعشرين، دط، دار الكتاب الحديث، مصر، 2002م.
53. أحمد منور ، أزمة الهوية في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية ، دراسة أدبية ، د ط ، دار الساحل ، الجزائر ، 2013م.
54. إحسان عباس ،فن الشعر ،ط1،دار صادر ،بيروت ،لبنان ،دار الشروق ،عمان ،الأردن ،1996م.
55. إسماعيل الملحم، كيف نعتني بالطفل وأدبه، ط 1، دار علاء الدين، دمشق، 1994م.
56. إسماعيل عبد الفتاح، أدب الأطفال في العالم المعاصر، ط1، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، مصر، رمضان 1420هـ، يناير 2000م.
57. انشراح إبراهيم المشرفي، أدب الأطفال ،مدخل للتربية الإبداعية، ط 1، مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع، دب،2005م.
58. باديس فوغالي، معجم القصاص الجزائريين في القرن العشرين ، د .ط ، منشورات مخبر الدراسات الأدبية والإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2005م
59. الحملة العالمية لحقوق الإنسان، اتفاقية حقوق الطفل، الأمم المتحدة، نيويورك، المادة 1.
60. أم الخير جبور، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، دراسة سويسو نقدية ،ط1، مطبعة بربرمارين، الجزائر، 2013م.
61. ذكاء الحر ، الطفل العربي و ثقافة المجتمع ، عينات من قصص الأطفال ، ط1 ، دار الحداثة للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت لبنان ، 1984 م.
62. رنيه ويليك،أوستن وراين ،نظرية الأدب ،تر:محيي الدين صبحي،د.ط ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،بيروت ،لبنان ،1987م .
63. سعد أبو رضا، النص الأدبي للأطفال-أهدافه ومصادره وسماته، د.ط، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، دت.
64. سميح أبو مغلي ،عبد الحافظ سلامة، التنشئة الاجتماعية للطفل، د.ط، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمان، 2013م.
65. عبد الرحمن العيسوي، حقوق الطفل في ضوء الدراسات النفسية الحديثة، المؤتمر القومي حول مشروع اتفاقية حقوق الطفل، الإسكندرية، 1988م.
66. عبد العزيز بوباكير، الأدب الجزائري في مرآة استشراقية ،د.ط، دار القصبة، الجزائر، 2002م.

67. عبد الفتاح أبو معال، أدب الأطفال دراسة وتطبيق، ط 2، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2001م.

68. عبد المعطي نمر موسى ومحمد عبد الرحيم الفيصل، أدب الأطفال، د.ط، دار الكندي للنشر والتوزيع، الأردن، 2000م.

69. عمر بن قينة ، الشكل و الصورة في الرحلة الجزائرية الحديثة ، ط1 ، شركة دار الأمة للطباعة و الترجمة و النشر و التوزيع ، الجزائر ، 1995م .

70. أبو القاسم سعد الله ، دراسات في الأدب الجزائري الحديث ، ط 5 ، دار رائد للكتاب ،الجزائر ،2007 م.

71. كريمان بدير، الأسس النفسية لنمو الطفل، ط 2، دار المسيرة، عمان، 2010م.

72. محمد أديب الجاجي، أدب الطفل في المنظور الإسلامي دراسة وتقويم، د.ط، دار عمان للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، د.ت.

73. محمد عبد الرزاق إبراهيم ،هاني محمد يونس ،وحيد السيد حافظ، ثقافة الطفل، ط 3، دار الفكر، عمان، الأردن، 2009م.

74. محمد عبد الطاهر الطيب و رشدي عبده حنين و محمود عبد الجليل مينسري، الطفل في مرحلة ما قبل المدرسة،د.ط، منشأة المعارف، الإسكندرية، دت.

75. محمد عماد الدين إسماعيل، الطفل من الحمل إلى الرشد، ط 1، دار الفكر ناشرون وموزعون، عمان، الأردن، 2010م.

76. محمد مبارك الصوري، مسرح الطفل وأثره في تكوين القيم والاتجاهات، د.ط، مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت، 1998م.

77. محمد مرتاض، من قضايا أدب الأطفال،دراسة تاريخية فنية، د.ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية بن عكنون، الجزائر، 1994م.

78. محمد ناصر ، الشعر الجزائري الحديث ، اتجاهاته و خصائصه الفنية 1925 – 1975 ، ط2 ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، لبنان ، 2006 م.

79. مريم سليم، الاضطرابات النفسية عند الأطفال والمراهقين، ط 1، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 2010م.

80. مصطفى ناصف ، الصورة الأدبية، د.ط ، دار الأندلس للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ، لبنان ،د.ت.

81. مفتاح محمد دياب، مقدمة في ثقافة وأدب الأطفال، ط 1، الدار الدولية للنشر والتوزيع، مصر، كندا، 1995م.
82. منتصر سعد حمودة و بلال أمين زين الدين، انحراف الأحداث-دراسة فقهية في ضوء علم الإجرام والعقاب والشريعة الإسلامية، ط 1، دار الفكر الجامعي، مصر، 2007م.
83. منير فوزي ، صورة الطفل في الرواية المصرية ، ط1 ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت، لبنان ، 1997 م .
84. نبيلة رسلان، حقوق الطفل في القانون المصري، ط 1، دار النهضة العربية، الإسكندرية، 1996م.
85. هادي نعمان الهيتي، أدب الأطفال فلسفته فنونه ووسائطه، دط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، بالاشتراك مع دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، 1977م.
86. وفيق صفوت مختار، سيكولوجية الطفولة،دراسة تربوية نفسية في الفترة من عامين إلى اثنى عشر عاما، دط، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2005م

المجلات:

87. ثائر سمير الشمري ، الأطفال في الشعر العباسي ، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية و الأدب و الفنون ، مج 2 ، العدد 1 ، كلية التربية الأساسية ،جامعة بابل، جوان 2012 .
88. سليم بتقه ،الكتابة الإيدولوجية عند محمد ديب، مجلة الناص، العدد 8، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة جيجل- الجزائر، مارس 2008م.

الرسائل :

89.ربى شرحادة ، صورة الطفل في الشعر الجاهلي ، رسالة ماجستير ، كلية الدراسات العليا ، جامعة النجاح الوطنية ، نابلس ،فلسطين ، 2013م

المواقع :

90.<www.aljazeera.net/encylopedia/icons/2014/12/22,2-05-2015,21:15>.

الفهرس

فهرس المحتويات

مقدمة..... **أ–ت**

مدخل:نبذة عن أدب الأطفال.....1-7

الفصل الأول:الطفل في الدراسات العلمية والمخيال الأدبي.....8-44

المبحث الأول:الطفل وعلم النفس.....10-16

المبحث الثاني:الطفل وعلم الاجتماع.....17-21

المبحث الثالث:الطفل في المخيال الأدبي 22-44

الفصل الثاني:صورة الطفل الجزائري في ثلاثية محمد ديب (الدار الكبيرة، الحريق، النول) ..45-83

المبحث الأول:ترجمة المؤلف..... 47-50

المبحث الثاني:صورة الطفل في رواية الدار الكبيرة (أطفال المدينة)..... 51-63

المبحث الثالث:صورة الطفل في رواية الحريق.(أطفال الريف)..... 64-73

المبحث الرابع:صورة الطفل في النول (الحياة العملية لعمر)..... 74-83

خاتمة..... 84-86

قائمة المصادر والمراجع 87-92

فهرس المحتويات 93